وتشرق شمس الأناضول..



دار نهضة مصر للنشر

تأليف
نسرين مهران

وتشرق شمس الأناضول..

تأليف

نسرين مهران



العنوان:

وتشرق شمس الأناضول..

تأليف:

نسرين مهران

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4313-5

رقم الإيداع: 10206/ 2012

الطبعة الأولى: يناير 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

المحتـــويــــات

إهـــداء

إلى روح أبـــي..

الـذي علمنــي أن الإنســان بقــدر

اطّلاعه ومعرفته

إلى مُنية الفؤاد وتوءم روحي..

إسان أوزتورك

إلى الكاتب الصديق أحمد هريدي..

إلى مصر.. الأرض والشعب والحب..

تقديم

ما الذي أملى على الكاتبة «نسرين مهران» أن تدون تجربتها في السفر والرحلة إلى تركيا في كتاب؟ أهي روائح البوسفور، أم سيمفونية ألوان زهور «بورصة» المدينة الربانية، كما وصفها الشاعر الفرنسي «هنري رينيه»، أم قمم جبال أولوداغ المتشحة بالبياض، والمكسوة بمعطف من غابات مسحورة من زمن البراءة الأولى؟ هل استحوذت هذه المشاهد على جزء من نفسها وروحها، فلم تستطع إلَّا أن تحتفظ بها في دولاب ذكرياتها؛ لكي تكون ملاذًا آمنًا لها في لحظات الضيق والكرب؟ هل هو ارتباطها العاطفي بالشعب التركي الطيب المتسامح، صاحب القلب الأبيض النقي، متمثلًا في ابتسامة «إسان أوزتورك» الرائعة في صباح يوم مشمس جميل في منتزه «هينشليك» بأنقرة؟

هي إذن حالة عاطفية وعقلية تتلبس كاتبة نص الرحلة، دافعها الحنين إلى استعادة تفاصيل الرحلة، واستدعاء مشاهدها وصورها

على الورق، بعد تأملها، مستعينة بوعيها وثقافتها وذاكرتها البصرية وقدرتها على التفكير والفهم.

على أبواب قلعة «طرابزون» القديمة تبدَّى التاريخ لعيني كاتبة الرحلة شيخًا عجوزًا يلعب النرد، ويتأمل حال الإنسان، ثم واصلت سيرها باتجاه الريح والصدفة لتسرع الخطى وتبطئ... تتأمل الطيور وهي تستقبل صباح يوم جديد فوق غصون أشجار الزيتون، وتحدِّق إلى اللافتات والمحال والمارَّة، وتتوقف أمام الأشياء... وبنفس مطمئنة تسير في طرقات المدينة وحدائقها، ترافقها في جولاتها أطياف أرواح طاهرة سكنت الأمكنة.

وأمام مسجد السلطان أحمد بإسطنبول، توقفت بها ساعة الزمن، فرأت التاريخ ينفض عن نفسه غبار الزمن مرتديًا ثوبًا جديدًا. لكن صدى صوت احتفالات السلاطين واستعراضات الجند وحفلات طهور الأطفال في الميدان الكبير - ظل يتردد في سمعها وهي تمد بصرها إلى المآذن الست للمسجد الأزرق، المشرعة كسهام عشق إلى السماء الزرقاء؛ أقرب مكان إلى الله.

لا يقنع كاتب نص الرحلة من ترحاله إلَّا بالفوز بمصادفة الاكتشاف، وبلقاء التجربة، وبمتعة المعرفة المباغتة، مازجًا بين تاريخ الأمكنة وبين تاريخه الشخصي.. ومُوليًا كبير اهتمامه لفهم المشهد في تمامه، وليس في جزئياته الصغيرة، مستعينًا في ذلك بخياله النشط، ليبعث في المشهد الحياة والشعر، ويضفي عليه المعنى والدلالة.

رحلـة كاتبتنا «نسرين مهـران» إلى تركيا، انتقـال دائم بين الماضي والحـاضر، ولقـاء دائم لا يفتقر إلى الدهشـة بين «هنـا» مكان الرحلة كمجتمـع وثقافة، وبين «هناك» مجتمـع وثقافة المكان الأصلي، مصر، الـذي تنتمـي إليـه، وتحملـه كرحّالـة فوق كتفيهـا أينما تحـل رحالها، والذي منه تبدأ الرحلة وإليه تعود... رحلتها إلى تركيا، حلول ساطع في المكان الآخر، يعيد لها اكتشاف تفاصيل وجزئيات مكانها الأصلي، وينير لها فيه مناطق معتمة لم تكن قد رأتها من قبل.

تلـك الحالـة العاطفيـة والعقلية التـي تتلبس كاتبة نـص الرحلة، والتـي كان دافعهـا الحنين إلى اسـتعادة تفاصيل رحلتهـا على الورق، تتطلب منها أن تختـار التحدث بضمير المتكلم المراقب، المتبني موقفًا شـخصيًا غير محايـد بالطبع تجـاه الأحيـاء والأشـياء، وأن تنتقي من الواقع الصور والمشاهد المحمَّلة بالعاطفة والخيال، وأن تدسَّ روحها في أحاديـث الأمكنة والأزمنـة، لتطلع علينا بعدئذ بأحاديث نفسـها وروحهـا، عـبر صياغات لغوية عاطفية، تبـدو وكأنها جمل وعبارات لحنية منسابة تتخلل إيقاع مشاهد الرحلة.

نـص الرحلـة الـذي تنفتح لـه طواعية بوابـة الأدب هو سـفر في المـكان قد لا يسـتغرق سـوى أيام، لكنه سـفر حـر في الزمان لا يحده حـد، وهـو أيضًا مسـاحات مـن التأمـل والتفكـير والنقـد والمقارنة والشـعر والاسـتدعاءات من خزانة التذكارات، بعضها يقدم وجهة نظر تقترب كثيرًا من وجهة نظر الشاعر.

من الجميل أن تطلع علينا الكاتبة «نسرين مهران» بكتاب في أدب الرحلة، هذا النوع الأدبي الذي يلقى اهتمامًا كبيرًا من كبار الأدباء في العالم.. في حين لا يلقى اهتمامًا مماثلًا من أدبائنا المصريين والعرب، أو من قِبَل القائمين على جوائز الدولة في الأدب في بلادنا... ومن الجميل أيضًا أن يكون باكورة إنتاجها في هذا الحقل الأدبي كتابًا عن عدة مدن تركية؛ مدن تبدو وقد بلغت سن الرشد؛ مدن تعلن على زائرها الحب من النظرة الأولى؛ ومدن تقدم موعدًا دائمًا مع الدهشة للمسافرين إليها.

هل تحمل الرحلة الوعد بالفرح للرحَّالة؟ هل المسافر الرحَّالة عند كل قدوم له من الرحلة يجد في داخل نفسه ما يذكِّره بقول الشاعر الإنجليزي «ت. إس. إليوت»: انطلق أيها الرحالة، فأنت بعد كل رحلة لست نفس الشخص الذي كنته قبل بدء الرحلة؟ وهل الوعد بالفرح الذي تحمله الرحلة للرحَّالة يعدنا نحن أيضًا بكتب أخرى قادمة لكاتبتنا في أدب الرحلة؟

أحمد هريدي

الباب الأول
طــرابــزون.. ســيدة البحـــر الأســـود

تغوص وسط السحاب.. تبحر في سماء الضوء.. تشق الهواء بسرعة كأنها بساط سحري يحمل الحالمين إلى دنيا جديدة. تارة ترفعها غيمة وردية، وتارة أخرى تداهمها البنفسجية.. كم هو رائع جدًّا مشهد الطائرة وهي تعانق الشمس باحثة عن الحرية.. تفتش عن ميناء سلام.

ساعات من الطيران تمضي، وإذا بدخان السحب البيضاء يتبدد ليكشف من خلف زجاج النافذة عن وجه أجمل بقعة على الأراضي التركية.. إنها «طرابزون» مدينة الحب والجمال؛ فيها يولد الحب يوميًّا مع أشعة الفجر، وطعم السنابل، وعطر الجدائل.. الناس على أرضها يعشقون في لين وفي يسر، حتى إن الترنيم بالحب أصبح عبادة للصغير والكبير سواء.

حطَّت عجلات الطائرة على أرض عُرفت بالأمن والأمان، واحتضنت ثقافات عصور الهوريين، الحيثيين، الفارسيين، الميديين، السلجوقيين والعثمانيين.. كان الأخضر يسيطر على كل الأشياء من حولي؛ على التفاصيل الصغيرة، والخطوط المستقيمة والمستديرة.

سلامًا عليك سيدة مدن شمال شرق تركيا والبحر الأسود.. سلامًا عليك أيتها الأرض الأسيرة.. كنت عقاب الله فينا ثم صرت جنة الله الصغيرة.

***

في زرقة الفجر، تدب الحياة بمدينة أكثر من نصف سكانها يعملون بالزراعة. فيها تشم رائحة الخبز الساخن المتصاعدة من الأفران تعبئ هواء الصباح البارد. الكل ينهض مبكرًا ناشدًا السعي والرزق الحلال.

حملتني الشوارع إلى ضواحي السكينة، وعبرت بي جسور مودة، تصافح وجوه البسطاء البشوشة، القنوعة والراضية بالمقسوم. الأمطار هنا لا تتوقف، وهو ما يجعلك تتنفس دائمًا رائحة العشب بعد المطر صيفًا وشتاءً. ما أطيبها من رائحة!!

تحت الشبابيك العتيقة وبين الطرقات.. في كل زاوية تتحدث المدينة عن نفسها وتحكي تاريخها الذي يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد على يد المستعمرين الميديين، حتى وإن كانت أغلب المعالم العمرانية فيها تعود إلى زمن البيزنطيين والعثمانيين.. أينما ترسل

بـصرك تجد آثـار وبقايـا الحضارات القديمـة التي تقف شـاهدة على ميراث ما يزيد على 5000 سنة من تاريخ تركيا.

فلندخل الآن أرض الحكاية...

شـاءت الأقـدار أن تكـون «قلعـة طرابـزون» المنيعة هـي محطتي الأولى في الرحلة. رغم أن رؤيتها عن بعد واضحة جدًّا لعين الناظر، فـإن زيارتهـا عن قرب غير ممكنة بسـبب وقوعها داخـل إطار منطقة عسـكرية. رابضة في شموخ وعز القياصرة منذ ألفي عام قبل الميلاد، ومازالت تعد من أكثر القلاع محافظةً على شكلها حتى يومنا هذا.

الصخور المرتفعة داكنة اللون.. الجدار السـميك الذي يحيط بها.. ومفـردات أخرى عديدة تفصح عن دهـاء الأجداد في حماية قلاعهم مـن الانهيار والدمار وتقلبات الزمان. على أبوابها شـاهدت التاريخ وكأنـه شـيخ عجوز يلعـب بالنرد، متأمـلًا حال الإنسـان الذي يبني ويشـيِّد وكأنه يعيش أبدًا.. غافلًا عن أنه عابر في هذه الدنيا.. مسـافر فيها ليس إلَّا...

رحت أواصل مسيرتي باتجاه الريح والصدفة..

أسرع.. أبطـئ.. أحـدِّق إلى اللافتـات والمحال والمـارة.. أتوقف أمام الأشـياء.. أمشي بنفـس مطمئنة في الطرقـات والحدائق.. أتأمل الطيور وهي تسـتقبل صباح نهار جديد فـوق غصون الزيتون، حتى لاح في الأفـق قصر أبيض يقع في أعلى تل سـوجوكسر على بعد 8كم

من مركز المدينة؛ إنه «قصر أتاتورك» الذي أصبح مُتحفًا فيما بعد عام 1964 بما يضم من مقتنيات للزعيم التركي الراحل.

كلما اقتربت منه، كانت تكبر وتكبر في عيني أشجار الصنوبر الباسقة المدهشة التي تحيط بالقصر؛ سيمفونية رائعة من الجمال تفوح من حديقته الفنية الغنية بأحواض الزهور بألوانها الزاهية المختلفة. حقًّا لقد أبدع المصرفي اليوناني قسطنطينوس كاباجيانيديس عندما شيَّد في عام 1903 هذه التحفة المعمارية على الطراز الروسي.

الكلاسيكية هنا تطغى على المكان وتبسط نفوذها في كل ركن؛ الأثاث.. الجرامافون.. النجف والسجاد.. الملابس.. كل شيء من حولي يعكس مدى الرقي ويفوح منه عبق الأصالة على قدر بساطته.

مصطفى كمال أتاتورك الذي عاش بالقصر في عامي 1930 - 1937 خلال فترة زيارته لطرابزون، تُغطِّي جميع الجدران بصوره سواء بالملابس الرسمية أو العسكرية. وقفت طويلًا أمام الصور أتأملها وأبحث عن سر الابتسامة الغامضة والمحيرة لهذا القائد! ابتسامة خفيَّة تراها في عينيه وليس فوق شفتيه! ربما لها ملمح ساخر من قَدَرٍ وضع شخصًا جسورًا -مثله- على رأس أمة مهزومة.

أيًا ما كان الجدل حول شخصيته وسياساته، فإن الأتراك ينصِّبونه «أبًا للأتراك» وزعيمهم الروحي، بل إن البعض يعتبره نصف نبي جاء برسالة لإنقاذ الأمة التركية من الهلاك والنهوض بها إلى العالم المتقدم.

التعبـد في حـضـن الطبـيعــة

حملت في قلبي الصور والذكريات، ومضيت أبحث عن سلام النفس وسكينة الفؤاد. ما كان من الممكن أن أجيء إلى طرابزون، وهي المدينة التركية التي تعرف بالجوامع القديمة، دون أن أقوم بزيارة لأشهر الجوامع وأداء الصلوات بها، فمررت بمسجد «جول بهار خاتون» و«إسكندر باشا». كما لم يفتني زيارة مسجد «الجمعة الجديد» الذي تحول -بعد سنوات من فتح المدينة- من كنيسة بيزنطية إلى مسجد على يد السلطان محمد الفاتح عام 1463، وبه أقيمت صلاة أول جمعة بعد الفتح.

لا شك أن المرور ببيوت الله يذيب صقيع الغربة ويؤجج حرارة المشاعر بالقيم الروحانية والمعاني النورانية، كذلك الطيور المهاجرة في الفضاء الواسع عادة ما كانت تتخذها قبلة لها.. وتحط أمام ساحاتها ليلتقط القلب تنهيدة والفم العذب تغريدة. وعندما يأتي المساء، يرتفع صوت أذان العشاء ليضفي على المدينة الطمأنينة ويعلن نهاية يوم والاستعداد إلى استقبال آخر جديد.

وفي طرابزون يجد المسيحي ضالته المنشودة ويستمتع بالأماكن المقدسة وممارسة شعائر العبادة. من أجمل الأماكن التي تعلق بها قلبي في جولتي كانت كنيسة القديسة صوفيا وإلى جوارها برج الأجراس العتيق.

تحكي لوحة رخامية كبيرة معلقة على بابها قصتها للزائر بأكثر من لغة.. أدركت من خلال قراءتها أن تاريخ بناء الكنيسة يعود إلى

عهد الإمبراطور قسطنطينوس الثاني وذلك في عام 360م، ولكن بعد تدميرها وحرقها عام 404م قام الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني ببنائها عام 515م، ثم دمرت من جديد إثر ثورة نيكا عام 532م. بيد أن البناء الحالي يعود إلى عهد الإمبراطور جوستينياس الذي بدأ أعمال البناء في النصف الثاني من عام 532م.

تكمن روعة الكنيسة في القبة الرئيسية الضخمة والمرسوم عليها صورة السيدة العذراء وطفلها السيد المسيح. المشهد كله يبتلعك حين تقف في منتصف القبة التي ترتكز على القناطر الأربع من دون أعمدة أساسية.

بانوراما من الصور والقصص تدور بسرعة من حولك دون توقف.. أيقونات عديدة وأجزاء من العهد القديم والجديد تزين الجدران.. رسومات لوجوه قديسين ورعاة في كل جنبات الكنيسة.. قصة آدم وحواء منحوتة بإتقان ومهارة على لوحة جدارية في الرواق الجنوبي من الكنيسة.

رغم مرور السنين لم ينل الزمن من جمال عمارة المكان وألوانه الساخنة النابضة بالحياة.

***

الأفق مفتوح.. الأكسيجين ملء الفضاء.. هنا في دير سوميللا، على بعد 46كم جنوب المدينة وارتفاع 1200 متر من سطح البحر، تشعر كما لو أن حدود الشمس هي مملكتك. يجتاحك الهدوء الطاغي

وهدير الصمت. كلما أرهفت السمع إلى صوت السكون، قلَّ كلام اللسان وتعالت أحاديث القلب مع الخالق. من هذا الموقع الفريد، استحضرت الذاكرة مشهد سيدنا موسى وهو يكلم ربه من أعلى جبل سيناء ويتلقى منه الوصايا العشر. في مواجهة جلال هذا المشهد، لا يسعك سوى إسقاط جميع الأقنعة عن وجهك، والاعتراف أمام خالقك بخطاياك.. وطلب المغفرة.

حقًّا ما أجمل التعبد في حضن الطبيعة قرب عنان السماء!!

هنا، بعيدًا عن أرض البشر، قام راهبان أرثوذكسيان من أثينا، هما: برنابا وصفرونيوس، ببنائه في القرن الرابع عشر داخل حضن جرف صخري وسط الجبال والغابات. وبعد الفتح العثماني للمدينة، شمل سلاطين الأتراك الدير بحمايتهم المباشرة، إلَّا أنه ظل مؤهلًا للعبادة حتى عام 1923 فقط؛ نظرًا لنشوب الحرب التركية-اليونانية وما تبعها من هجرة الرهبان والمؤمنين.

في جو يلفه الخشوع والرهبة، يمضي الوقت دون ملل وأنت تستمتع بقصص كثيرة يسردها المرشد السياحي لناس هجروا حياة الأرض وفضلوا العيش فوق سفح الجبل تقربًا إلى الله وزهدًا في ملذات الدنيا. حكايات ممتعة ترويها جدران كنيسة «رفع العذراء» داخل الدير، والتي تتألف من 72 غرفة تتوزع على خمسة طوابق، وتشمل غرف الرهبان وأماكن العبادة، إلى جانب صالة العرض

ومركـز للمراقبة.. أطياف الأرواح الطاهرة التي سـكنت هذا المكان ترافقك خلال الجولة بالغرف.

وبخـلاف اللوحـات الجداريـة التـي محا الزمـن منها الكثـير، تبقى الخطوط والألوان البديعة الباقية شاهدًا على عبقرية فناني هذا العصر.

آخــر أيــام الصيــف

ومـا زال في الدرب درب لنمشي ونمشي تحـت زخات المطر التي اسـتمر هطولها طوال رحلتنا. وبالرغم من أن شـهر أغسـطس يعتبر أكثر شـهور الصيف حرارة في مصر، فإنه يجسـد آخر أيام الصيف في طرابزون.

بخلاف المعالم السياحية والآثار التاريخية والدينية، رحت أكتشف الوجه الآخر للجمال الذي يكمن في طيات الطبيعة الساحرة؛ فالمدينة تتمتـع بتضاريـس جبلية وسـهلية مختلفة من جبال خـضراء وغابات كثيفـة وبحـيرات وأنهـار وشـلالات، وهو مـا جعلها إقليـمًا صغيرًا للحب في الوطن الكبير تركيا.

في منطقـة محصورة بـين الجبال الخـضراء، تطير العصافـير لما بعد السـماء.. تقتفـي صـوت موسـيقى بيتهوفـن وشـوبان التـي تحملها الريـاح.. وفجأة، تنشـق الأرض ويخـرج منها الماء؛ لتشـكل الطبيعة بأناملها بحيرة صغيرة على هيئة نجمة تُعرف باسم «سارا جول»؛ أي بحيرة سارا.

وفقًا للروايات التي يتناقلها سكان المنطقة، فإنه في عام 1950 تساقطت أمطار غزيرة وهو ما أدى إلى فيضانات وسيول وتشقق في الجبال، أسهمت الظواهر الطبيعية بدورها في تكوين هذه البحيرة الساحرة. ومن باب المصادفة أخذت شكل النجمة؛ لذا سميت المنطقة المحيطة بالبحيرة منطقة «يلديز» أي «النجمة» باللغة التركية.

كحمامة مشتاقة للساقية، يلتقي العشاق على أطراف البحيرة.. منهم من يستقل قاربًا صغيرًا، ويبحر في بحر الغرام تحت نور القمر.. ومنهم من يجلس تحت شجر الصفصاف ليُسجل قصة غرامه على جذعها. الحب هنا ليس له خرائط.. فالأرض تعبر عن أحاسيسها بإبداع.. والزهور بألوانها البديعة تسند العشاق إن مالوا وتحفظ الأسرار.

ألقى الهوى ظلاله عليَّ، فأغمضت عيني للحظات ورحت أدندن -دون وعي- بأبيات شعر محمود درويش التي كان ينشد فيها الهزيمة في حروب الحب، قائلًا:

أَعطنا يا حُبُّ فَيْضَكَ كُلَّه لنخوض

حرب العاطفيّين الشريفةَ، فالمُناخُ ملائمٌ

والشمس تشحذ في الصباح سلاحنا

يا حُبّ! لا هدفٌ لنا إلاّ الهزيمةَ في

حروبك.. فانتصرْ أَنت انتصرْ، سَلِمَتْ

يداك! وَعُدْ إلينا خاسرين... وسالمًا!

حانت ساعة الرحيل مع أفول قرص الشمس، وقد تملّكني في طريق عودتي إلى الفندق شعور أقرب إلى اليقين، وهو أن من لا يحب في هذا الجمال فلن يحب مدى الحياة!

***

في اليوم التالي، عدوت إلى موطن جديد للعشق أشبه ما يكون بلوحة فنية تأثيرية من إبداعات سيزان أو رنوار. البحيرة تحتضنها الجبال المكسوة بغابات أشجار الصنوبر التي يلتف برءوسها الضباب.. يمزج الربيع عصارته الخضراء في مياهها حيث تلتقي الكثير من الجداول والأنهار التي تنبع من أعلى الجبال وتسلك طريقها عبر الصخور متوجهة نحو «أوزون جول» أي «البحيرة الطويلة».

النزهة على ضفاف البحيرة.. مناظر الجداول المنسابة عبر الطرق الجبلية.. النسيم العليل البارد المعطر برائحة الأقحوان الجبلي.. جميعها يأخذك إلى عالم آخر من الفتنة والجمال.. عادة ما يقدم السائحون على صعود أعالي الجبال من أجل التقاط الصور التذكارية وسط الطبيعة الخلابة. وعلى أطراف البحيرة يوجد ممر يبلغ طوله 3كم تقريبًا يستخدم لممارسة رياضة المشي في الصباح الباكر.

المنطقة تتميز أيضًا بفنادقها التي تعد «صديقة للبيئة»، وهي على هيئة أكشاك أو أكواخ خشبية. كم هي تجربة جميلة العيش في أكواخ تبعدك عن جو المنازل والفيلات التقليدية التي تعودنا السكن فيها ببلادنا، خاصة أن جميعها يطل على ضفاف البحيرة..

علـى مـدى أيام إقامتـي بالمدينة، كنت أتـردد يوميًا عـلى أكثر من مقهى ومطعم لأفاضل بينها وأستمتع بفنـون الضيافة في كل واحد منهـا عـلى حدة.. حقًّا ما أجمل احتسـاء فنجان من القهوة أو الشـاي بصحبـة خرير الماء! ومن خلال أحاديثي مـع أصحاب هذه المقاهي والعاملـين بهـا، كنت أدرك مـدى حبهم للمصريين عن أي جنسـية أخرى تـتردد عليهم. فالمـصري -عندهم- إنسـان ودود ومتواضع ومحب للحياة.

لفت انتباهي وجود كثير من العائلات الخليجية عامة، والسعودية خاصـة، التـي عادة ما تأتي هنـا لقضاء إجازات المـدارس والصيف! حتـى إن بعض البيوت الخشـبية كانـت ترفع العلم التركـي جنبًا إلى جنب مع علم السعودية.

يعود الليل إلى ليلته، وفيه يتجمع سكان المنطقة للاستمتاع بالغناء والسمر والرقص الجماعي. من أشهر الرقصات الشعبية المعروفة هنا - ولسـكان ساحل البحر الأسـود كله- «الهورون». وتختلف رقصة الهورون كثيرًا عن الرقصات التركية الأخرى، ويعود هذا الاختلاف إلى الميزور الموسـيقي المستخدم في العزف المرافق لها حيث إنه يتصف بالسرعة وقياسـه عادة يكون من القياس (7 لـ 16).. وهذا ما يجعل الألحان سريعة الإيقاع بحيث لا تستطيع أية آلة أن تعزفها، وعادة ما يرافـق رقص الهورون آلة الطبلة بقياسـها الصغير، تسـمى هذه الآلة «كورا» باللغة التركية.

بينما يرتدي الرجال زيًّا أسـود ويقومون بتقديم رقصات تتخللها حركات سريعة تستعرض رشاقتهم ولياقتهم البدنية المدهشة، تتمايل الفتيات بهدوء ودلال وهن يمسكن في كل يد شمعة مضيئة.. فيشعلن الليل ويؤسرن القلوب على ألحان الموسيقى العذبة.

مثلما تقضم دقات الساعة العمر، فإنها تقضم أيضًا اللحظات الحلوة..

لا يبقى إلَّا شلَّال الصور الذي لا يرتوي منه النظر.. لمدينة يخضر تحتها الحجر.

إنها «طرابزون».. سيدة مدن شمال شرق تركيا والبحر الأسود.

***

الباب الثاني
ريــزا.. القلـــب الأخضـــر والأرض الســـكر

بساط أخضر ممتد على مرمى البصر.. درة البحر الأسود.. واحة من السحر.. مساحة للتأمل والود لكل من يريد أن يبتعد عن توترات السياسة، وأخبار الحروب، وغزو الأمراض، وصور التمزق، وعناء الحياة، وكذب الوقائع..

حديقة الجمال التي نلوذ بها من غباوة عصرنا الجاف وأيامنا اليابسة..

«أهلًا بكم في ريزا».. كانت اللافتة التي استقبلتنا بحفاوة ودفء على مدخل المدينة.

المكان شمال تركيا.. على مسافة 75كم إلى الشرق من طرابزون..

بنيت على منحدر جبل محاطة بحقول من شجيرات الشاي الكثيفة التي من فرط كثافتها يستحيل معها رؤية سطح الأرض.

أينما ترسل النظر، الظلال الخضراء من حولك لا تنتهي. وقد أضفت عليها الطبيعة وعبقرية المكان سمة سياحية خاصة بفضل وديانها العمودية المنحدرة، وجمال مناظرها الخلابة، ومستنقعاتها المجمدة، وسهولها الخضراء البلورية، وقلاعها وجسورها وحدودها التاريخية، وعيونها المائية العذبة. الأرض تفيض بمجموعة من الجداول والأنهار التي تنبع من مرتفعات الأناضول وتصب في البحر الأسود مشكِّلة في طريقها شلالات مياه رائعة.

كانت زيارتي لها مع بداية الشتاء.. وهنا يتميز شتاء وربيع المنطقة بجو معتدل، تتراوح درجات الحرارة فيها بحدود 14 درجة مئوية؛ لذا تنمو فيها زهور البحر المتوسط وأشجار البرتقال الحامض، إلا أن البندق والذرة والشاي بجميع أنواعه وأشكاله تحتل مساحة كبيرة من حقول المحافظة.

كل شيء يريح الأعصاب: بساطة الناس.. نمط الحياة.. رائحة الأرض والشجر.. الهواء النقي.. صوت المطر.. ومفردات أخرى تنفرد بها الطبيعة هنا.. يصعب للكلمات وحدها أن تصورها!

***

مع ضوء الصباح الأول، تخرج الفلاحات من منازلهن، يسحبن دوابهن إلى الحقول لبدء يوم عمل جديد. مهما كانت أعمارهن فإن

الفلاحـة التركية هـي رمز العطاء المتجـدد.. مانحة الخـير والأبناء.. خارج الطقس أو داخل الحقول الواسـعة، هي دائمًا في حالة حركة.. تغـزل الصـوف.. تصـب الشـاي.. تعجن وتخبـز.. تطـارد الرغيف أينـما مضى.. فعادة ما يقع عبء المسئولية على المـرأة أكثر من الرجل في منطقـة البحـر الأسـود.. ومع ذلـك، لا تفارق وجهها الابتسـامة والأمل في غد أفضل..

بعد أيام طويلة من العمل الشاق، تأتي ساعة الحصاد وجني الثمار.. البندق يفتح أبواب الرزق لأناس كثيرين هنا. حقول البندق -أو كما يطلـق عليه الأتراك «فندق» - تترامى على مد البصر.. لا حدود لها.. عـلى طول الطريق بالقرب مـن مزارعه، يباع البنـدق الأخضر بأربع لـيرات فقط سـعر الكيلو الواحـد أي ما يعـادل 16 جنيهًـا مصريًّا. كانـت هذه هي المرة الأولى في حياتي التـي أتذوقه وكم كانت مفاجأة لي أن أجـده طيبًـا ولذيـذًا جدًّا! فيه طعـم البيوت والحقـول والناس الطيبين..

هالني أيضًا في هذه الرحلة المسـاحات الكبيرة من مزارع الشاي، والتـي جعلـت مـن ريـزا «عاصمـة الشـاي» في تركيا بـلا منافس.. بالتأكيـد هناك مناطـق أخرى بالبلاد تنتشر فيها زراعة الشـاي لكنها ليسـت بنفس الجودة! الشـاي هنا له لون ونكهة وطعم ورائحة مميزة بفضـل الطبيعة الخلابة والمناخ الممطر معظم شـهور السـنة، حتى إنه خلال العام الواحد يتم حصده 4 مرات.

وكما ينبت العشب بين مفاصل صخرة، تنشأ مصانع الشاي في قلب الحقول. لم يفتني زيارة أحد هذه المصانع كي أتفقد طريقة العمل بداخله. هنا يقوم العاملون بغسل وفرز وطحن وغربلة وريقات الشاي عدة مرات، ثم تصنيفها لينتجوا في آخرها ما لا يقل عن تسعة أنواع من الشاي. منظومة العمل بالمصنع تسير بإيقاع واحد يغمره الحب والتفاني.. ضمائر الناس وحدها هي الرقيب عليهم.

أهيم شوقًا كلما استرجعت بعض اللحظات العابرة التي قضيتها في هذه الطبيعة البكر.. حينما كنت أستيقظ من نومي العميق على صوت هديل الحمام وخرير الماء.. وأحيانًا أخرى كنت أستيقظ على خوار الأبقار وصياح الديك..

أما الليل فلا أجد سوى القمر أناجيه، معانقًا السماء، والنجوم ترقص من حوله، كانت روحي تحلق عاليًا وتناشده عدم المغيب حتى أذهب في نومي.

***

أهرب من وحدتي لأتوغل في حقول الألفة.. وسط حقول الذرة، أو «مصر» -بكسر الميم والصاد كما يطلقون عليها- فيها تصغي إلى لحن الحياة.. هنا أدركت مدى المحبة والود الذي كان يملأ العيون كلما أخبرت أي تركي بأنني مصرية من «مصر».. وكأن اسم بلادي يذكره بالحنين لأرضه وخيراتها التي تجود بها عليه.

للذرة مكانة خاصة بين الزراعات التي تشتهر بها منطقة ريزا

وطرابزون.. يعشقها الأتراك بكل طوائفهم.. فالبعض يفضل تناولها مشوية، والبعض الآخر يفضلها مسلوقة في الماء ثم يرش عليها القليل من الملح.. وقد أدهشني، وأنا أتناول الغداء في أحد المطاعم بريزا، أن الذرة تدخل أيضًا في صناعة الخبز.

من فرط برودة الطقس، تشاهد المارَّة، كبارًا وصغارًا، في الشوارع والمتنزهات يحملون «مِصر» في أيديهم كوجبة ساخنة، ونظرًا لطعمها اللذيذ ورخص ثمنها يقبل الكثيرون على شرائها، وهو السبب في انتشار بائعي الذرة في كل مكان هناك، حتى إنك أحيانًا تجد ثلاثة بائعين على ناصية واحدة من الشارع.

كم أنت عظيمة يا مصر!!! دائمًا ما يتفق على حبك الفقير والغني.

الحمـــام التـركـــي

عبثًا أحدِّق إلى البعيد.. والمطر ينهمر زخات زخات.. فإذا ببخار كثيف يتصاعد من أحد المباني الواقعة في قلب الأخضر.. قادني الفضول لاكتشاف هذا المبنى عن قرب.. خاصة أن الدفء ينبعث من كل جنباته ويكسر صقيع الشتاء.. ما إن وصلت أمام بابه حتى تبين لي أنه أحد الحمامات التركية المنتشرة هناك بوفرة.

التوجه إلى الحمام التركي «الشعبي» هو أحد أهم طقوس الحياة اليومية في تركيا بشكل عام، وفي بورصة ريزا بشكل خاص.. الكثير من الفنادق تقوم حول هذه الحمامات والينابيع التي يأتي

إليها السائحون من جميع أنحاء العالم بحثًا عن الاسترخاء الجسدي والنفسي معًا.

ابتكر الأتراك القدماء هذه الحمامات كطريقة للاستحمام تساعد على تنظيف الجسم بعمق، وتنشيط الجلد، وإعادة الحيوية للبشرة، وتحسين الدورة الدموية.

أكد الخبراء أن الجلد يحتاج أن يتنفس أيضًا فهو يمتص الرطوبة ويطرح الفضلات.. فإذا ما انسدت المسام فإن السموم ستتراكم داخل الجسم؛ لذا فإن التخلص من هذه السموم هو ما يعيد للبشرة تألقها ولمعانها الطبيعي ويجعلها أكثر شبابًا لمدة أطول كما يساعد في تخفيف بعض الحالات المرضية بدءًا من الكآبة وحتى التهاب المفاصل.

غير أن كثيرًا من الناس يترددون عليه للترويح عن النفس وتبادل الأحاديث والقصص إلى جانب الاستحمام.

انتهزت الفرصة واستفسرت عن كل التفاصيل، فجمعت معلومات أكبر من تلك التي قرأتها في الكتب.. معلوماتي كانت من واقع شاهدته بعيني وتجربة قررت أن أخوضها بنفسي.

استقبلتني بكل ود وترحاب الفتاة المضيفة وتدعى «ناظ»، وأخبرتني أن الحمامات أنواع: منها المختلط.. وهناك الخاص. أما الأسعار فعادة ما تبدأ من 30 دولارًا تقريبًا. كانت ناظ كالبدر يمشي على الأرض.. الوجه مشرق كالصباح الجديد.. والخدود وردية كلون النبيذ.. حقًا هي للجمال خير سفير!!

بمجرد أن تدخل إلى الحمام، ترتدي ملابس خاصة بالمكان، تكون «بشكير» في الغالب. وعلى عكس الصورة النمطية التي نراها في الأفلام القديمة، تطور الحمام التركي وأدخلت عليه بعض التعديلات الحديثة؛ كالانتظار في غرفة ساونا وبخار خاصة مملوءة بالشموع المعطرة.. مع شرب الشاي والاستمتاع بالموسيقى الهادئة..

البداية تكون بالاستلقاء على طاولة مستديرة مسطحة من الرخام قطرها 15 مترًا وارتفاعها 70سم للخضوع لعملية تقشير الجلد الميت.. وتسمى هذه المرحلة «التكييس»؛ لأنها تجري بواسطة كيس خاص مصنوع من ألياف طبيعية موجودة في المغرب وتركيا ومصر وسوريا، ويستخدم لتنشيط الدورة الدموية في الجسم وفتح الشعيرات الدموية وإزالة السموم المتراكمة على سطح الجلد.

قد تكون عملية التكييس هذه مؤلمة في بادئ الأمر، ولكن عند اعتيادها تصبح ممتعة فتزيد طاقة الجسم وتنظف الجلد وتجعل الإنسان يشعر بأنه أخف وأنشط.

بعد التكييس، يسهل تدليك وتنظيف الجسد، إما بالصابون فقط وإما بالزيوت الطبيعية المفيدة صحيًا.. الأمر يختلف على حسب رغبة كل شخص.

يلي هذه الخطوة الاستحمام في بركة مياه كبرى للتخلص من الصابون أو الزيوت التي تغطي الجسم.. ثم تتوجه لغرفة خاصة تستريح فيها قليلًا وتتناول كوبًا من الشاي بالتفاح أو أي نكهة

أخرى تفضلها. بعد تمام الاسترخاء، ترتدي ملابسك استعدادًا للانطلاق خارج الحمام وأنت في أبهى وأفضل صورة من الممكن أن تكون عليها في حياتك على الإطلاق.. وكأنه ميلاد جديد.

نظرًا لفوائده العديدة، يكون جمهوره الأكبر من النساء؛ حرصًا منهن على الاسترخاء والحصول على بشرة نضرة، والتخلص من آلام المفاصل.. إلى جانب قضائهن ساعات من الضحك وسرد القصص والحكايات.. تكون لهن زادًا في أوقات العمل العصيبة.. وملاذًا للهروب من ضجر الحياة والملل.

من عادات بعض الأعراس في تركيا، انطلاق العروس مع صديقاتها أو قريباتها إلى الحمام التركي «الشعبي» قبل العرس بيومين أو أكثر، ويجري ذلك كأحد مراسم الاحتفال بالعروس حيث يتم فيه الغناء والرقص لها.. والانتهاء بتبخيرها والفتيات اللواتي يصاحبنها.. وتدليكها وتقشير جلدها حتى غسل الشعر.

في النهاية، الزيارة لريزا دون الاستمتاع بحماماتها المعدنية زيارة منقوصة.

موطن أردوجان

مهما تنوعت الطبيعة في تركيا، تظل منطقة البحر الأسود بطبيعتها الخاصة مصدر جذب حيوي للسياحة حيث تمثل السفوح الجميلة لوحة فنية رائعة، أضفت عليها العناية الإلهية جمالًا خلابًا، كما تزدان بالمناظر الطبيعية التي تدخل البهجة على نفوس الزائرين.

يعيش هنا أهل ريزا بين جبال شاهقة وسهول خصبة يانعة. وقد أضفت هذه الطبيعة على سكان المحافظة سمات خاصة؛ فتراهم يميلون إلى الشجار.. لكنهم لا يضمرون حقدًا لأحد.. شأن الصعايدة في جنوب مصر.. يغضبون بسرعة ويهدءون بسرعة أيضًا.. يُعرفون بالشجاعة والإقدام، والهمة العالية.

إنه البلد الذي أنجب على أرضه الطيبة رئيس الوزراء رجب طيب أردوجان، وهو بهذا يتمتع بصفات ومميزات أهله، لكنه رحل منه مع والده أحمد أردوجان عام 1918، وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره، واستقر به المقام لدى بعض أقاربه في محافظة «زونغولداق».. ثم رحل عنها بعد أربع سنوات ليستقر به المقام في إسطنبول، تحديدًا في حي «قاسم باشا» الذي يعد مثالًا واضحًا على مدى الترابط الاجتماعي بين جيرانه. إن الشاب المنتسب إلى هذا الحي، ينبغى أن يتصرف بالشجاعة والمروءة. لا شك أن النشأة والبيئة لعبت دورًا كبيرًا في تشكيل شخصية أردوجان مما جعله يضع الحق فوق الأحكام والقيم دون أن يجد حرجًا في ذلك.. واثقًا بمعتقداته.. لا يلعب دورًا غير حقيقته.. بل يتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره دون أن يكون بحاجة لأن يصبح شخصًا آخر.

توصل المؤرخ التركي «جزمي يورت سور» إلى أن جذور عائلة أردوجان تمتد إلى القرن السابع عشر، وذلك طبقًا لوثائق الأرشيف العثماني. ومن أجداده «باقات أوغلو ماميش» الذي عاش في قرية (دومان قليا) بمحافظة ريزا، وكان من مؤسسي هذه القرية. أما

الجد القريب لأردوجان فاسمه «طيّوب» وقد ورث صفات وتقاليد عائلته، ومات مقتولًا وهو يصلي في الجامع بسبب تصديه لمحاولة الاستيلاء على بعض أراضي الأوقاف الخيرية التابعة للقرية.

الأحاديث هنا عن رئيس الوزراء.. وصوره المنتشرة بكافة الأحجام على الجدران وأعمدة الإنارة- تنقل لك مدى عشق هؤلاء الناس لابن محافظتهم «أردوجان».. له في قلوب الفقراء والفلاحين والبسطاء كل الحب والتقدير.. فهو «نصيرهم وضميرهم المتكلم» حسب وصف «مصطفى سيزر» أحد الفلاحين الذين التقيتهم في حقول البندق.

قصَّ لي «سيزر» عن تواضع أخلاق رئيس الوزراء التركي التي يؤكد أنها أخلاق مكتسبة من محافظة ريزا، فيقول: عندما يشارك أردوجان في جنازة من الجنازات فإنه لا يرتدي نظارته الشمسية كما يفعل كبار المسئولين بالدولة.. نراه واقفًا في الصف الأول خلف الإمام ليصلي صلاة الجنازة.. وعقب الصلاة يقدم تعازيه لأقارب المتوفى.. بل إنه بكل سماحة وتواضع يدخل بكتفه تحت النعش ليحمله مع الآخرين. ويقسم لي سيزر -هذا الفلاح البسيط- إن الناس لا يساورهم الشك مطلقًا بأن أردوجان يفعل مثل هذه الأمور سياسة واصطناعًا، بل يدركون تمامًا أنه صادق ومخلص في أفعاله.. وأنه لم يعد يأبه بالناظرين إليه والمتبعين له.

لعب داخل المستطيل الأخضر أعوامًا طويلة أمام آلاف المشجعين لكرة القدم، وتنقَّل من نادي «جامع التي» إلى «هيئة الترام والأنفاق

بإسطنبول»، ثم جاءته أكثر من فرصة للاحتراف في نادي «إسكي شهير» ونادي «فنار باهتشه»، لكن والده تصدى له بحسم قائلًا: «إنما أردت لك أن تتعلم وتصبح رجلًا، فإذا بك تنشغل بأمور وشواغل لا علاقة لنا بها»! وهو ما جعل أردوجان يؤكد في إحدى المرات للصحفيين أنه فقد الكثير من الفرص المشابهة بسبب والده.

لا شك أن سلوكياته ومواقفه العامة تؤكد -يومًا بعد يوم- أنه زعيم خرج من رحم الشعب، وهو يوظِّف هذه المزية ليفهم الشعب ومتطلباته فهمًا جيدًا.

وقد وفق في ذلك إلى حد كبير..

***

عاودت الرحلة في هذه الجنة المفتوحة.. آية من آيات الله في الأرض.. كل ركن من أركانها يسبح من فيض إبداع الخالق عز وجل؛ المزارع.. الخضراوات والأزاهير المختلفة الألوان.. الأشجار الباسقة والحدائق الغنَّاء.. البساتين المثمرة الفيحاء التي تغطي مساحات كبيرة منها.. المرتفعات والتلال.. السهول والأودية والجبال.. تظهر للرائي في ثوب سندس، لا سيما منطقة «بوشنق»..

وكأن محمود درويش كتب فيها هذه الكلمات:

نسيمك عنبر

وأرضك سكر

وقلبك أخضر!

كل التفاصيل هنا تبرز الدور الكبير الذي تلعبه الحكومات التركية المتعاقبة، ممثلة في وزارة الثقافة والسياحة، من أجل الارتقاء بالسياحة والاستفادة من مقدرات الوطن بالشكل اللائق. فعبر سلسلة خطوات عملية موفقة استطاعت تركيا جعل هذه الصناعة مجموعة متكاملة من أصناف السياحة المختلفة عالميًا: فهي سياحة اصطياف وراحة في المناطق الساحلية على البحر المتوسط.. ومعها منتجعات وقرى سياحية على البحر الأسود تعمل خلال موسم الصيف.. وهناك أيضًا السياحة في منطقة جبال «ألما داغ» القريبة من العاصمة أنقرة.. واستطاعت تركيا تنويع سياحتها بين سياحة الصيد، وسياحة المعالجة الطبية، وسياحة المؤتمرات، وسياحة اليخوت، وسياحة الشباب، وسياحة السهول وتسلق الجبال، وسياحة الغوص تحت الماء، والسياحة النباتية وغيرها.. لا شك أن هناك تنوعًا سياحيًا فريدًا تزخر به تركيا بشكل عام.. وتحظو إليه بثبات محافظة ريزا.

أسألك الذهاب سيدتي وأنا الأسيرة في حبك.. أسألك الرحيل ووجهك كالوردة مزروع داخلي.. مثل الشمس يا حبيبي تكون أحلى عند المغيب.

***

الباب الثالث
إسطنبول.. يا موطن القلب

القول بأنها «شرقية» يجافي الواقع.. والقول بأنها «غربية» يدخل في إطار المبالغات.. الشيء المؤكد أنها تعد من أجمل مدن العالم وجسر التواصل بين الشرق والغرب.. تنازع في حبها الملوك، وتعاقبت عليها سلالات حاكمة وتحدث عنها بإسهاب رحالة وروائيون في أعمالهم؛ إنها «إسطنبول» عاصمة الدولة العثمانية.. أرض تحمل مفاتيح الأساطير القديمة والحكايات المثيرة.

كانت المدينة تودع الشتاء عندما دخلتها لأول مرة.. ورغم كثرة المشاهد في التاريخ وتدافعها في الذاكرة، بدرت لذهني صورة المسلمين وهم يدخلونها للمرة الأولى عام 857 هجريًا. جاء الفتح الإسلامي لها على يد السلطان محمد الفاتح لتحل محل مدينة

«القسطنطينية» الرومانية القديمة.. اسمها الأول كان «إسلام بول» ثم حرفت الكلمة إلى «إسطنبول».

من أي الأبواب أخطو إلى هذه المدينة؟! وهي التي عرفت -عبر تاريخها الطويل- كعاصمة لعدد من الدول والإمبراطوريات، فكانت عاصمة للإمبراطورية الرومانية (330-395)، الإمبراطورية البيزنطية (منذ عام 395 حتى سنة 1204 ثم من سنة 1261 حتى سنة 1453)، الإمبراطورية اللاتينية (1204-1261)، والدولة العثمانية (1453-1922).

وفي معظم هذه المراحل، أحيطت المدينة بهالة من القداسة؛ إذ كان لها أهمية دينية كبيرة عند سكانها وسكان الدول المجاورة، فكانت مدينة مهمة للمسيحيين بعد أن اعتنقت الإمبراطورية البيزنطية الدين المسيحي، قبل أن تتحول لتصبح عاصمة الخلافة الإسلامية من عام 1517 حتى انحلال الدولة العثمانية عام 1924. ونظرًا لثرائها التاريخي، تم إضافتها، في عام 1985، إلى قائمة مواقع التراث العالمي التابعة لليونسكو.

الحياة هنا تدب على وقع صياح الديك؛ حيث يخرج أفراد الشعب الطيب مع الخيوط الأولى للفجر ليشعلوا الحركة والنشاط في دولاب العمل اليومي. وإذا دخلت أي محل في هذا التوقيت الباكر فلا بد أن تحصل على خصم في سعر البضاعة، وهو ما يطلقون عليه «استفتاح» كما نقول عندنا في مصر. شعبها في مجمله لطيف المعشر، وهو ما يمكن أن يلمسه المرء بسهولة عند التعامل مع الباعة والمواطنين العاديين.

من الملامح التي سجلتها ذاكرتي أيضًا، كانت الأمانة التي يتحلى بها البائعون، وروح الدأب والإقناع، إلى حد أنني كنت أحيانًا أشتري أشياء مجاملة للبائع العاشق لمهنته. وبقدر الحركة والحياة التي تعج بها الشوارع والأسواق نهارًا، فإن الحياة تبدو ساكنة في المساء، فهذا البلد السياحي لا يسهر مثلنا، باستثناء شارع الاستقلال المتفرع من ميدان تقسيم الشهير، والذي يظل ساهرًا حتى الصباح بمحاله وكازينوهاته وفرقه الموسيقية والمطاعم بمختلف أنواعها القديمة والحديثة حيث يرجع تاريخ بعضها إلى 1888.

أينما تولِّ وجهك في إسطنبول تجد المطاعم تقدم جوًّا احتفاليًّا مشبعًا بألوان من فنون الطهي التركي، وهي الأقرب من حيث المذاق والرائحة لطعام البيت. وإذا كانت مطاعم الأسماك هي الأوسع انتشارًا على ضفاف البوسفور فإن محال الشاورما «الدونار» هي الأكثر شعبية في الشوارع.. وعلى مدى جولاتك، لن تستطيع أن تمنع نفسك من التوقف أمام المأكولات الساخنة التي تعرضها بعض المطاعم خلف واجهاتها الزجاجية في أيام الشتاء القارس البرد لتغري المارة بما يزيد من إحساسهم بالجوع. غير أن جمهور عربات السميت -ذات اللون الأحمر- لا ينقطع عنها ليلًا ونهارًا، سواء في الحدائق العامة أو على أرصفة الشوارع والحارات.

الحديث عن المطبخ التركي -الذي نقلنا عنه الكثير في مصر- يحتاج إلى دراسة مستفيضة. لا تكتمل هذه الدراسة إلا بالتعرف العملي على كل طبق من أطباقه اللذيذة وتذوقها، خاصة الشيش

كبـاب، والدولـما، والبوريك، وإمام بايلدي... بشـكل عـام، يعتمد نجـاح هـذا المطبخ على عنـاصر عديدة، يـأتي في مقدمتهـا الباذنجان الذي يدخل -وحده- في 40 طبقًا مختلفًا.

المجـد لله في الأعالـي

في هذه المدينة الواسعة يصعب أن تحدد إلى أين ستتجه؛ فالأماكن التـي تسـتحق الزيارة عديـدة ومتنوعة مـا بين قصور وقـلاع قديمة ومسـاجد عتيقة، بالإضافة إلى الأسـواق والرحلات البحرية. حملت خرائطـي وحقيبتـي، واسـتقللت المترو؛ أكثر وسـائل النقـل المريحة والسريعة والرخيصة هناك.

أخـذت الصور تتدافع سريعًا -باختلاف أطيافها- أمام عيني من خلـف نافذة المـترو؛ مجموعة مـن الفقراء يقفون عـلى جسر «جلاطه سراي» يصطادون السـمك لكسب قوتهم اليومي، وعلى مقربة منهم يقف بشـموخ وتعالٍ بـرج «جلاطه سراي» بحجارتـه العتيقة الذي يضـم مطعـمًا فاخرًا لا يدخلـه إلّا الأثرياء وكبـار الفنانين فقط.. ثمة مـا يدفعني للتوقف وتأمل التناقضات أمام انتشـار إعلانات لملابس المحجبـات وهـو مـا كان محظـورًا في الدولـة الكماليـة سـابقًا، وبـين إعلانات بها نسـاء بملابس البحر شـبه عاريات.. أتأمل وأغوص في التفاصيل الملونة التي تتناسق وتتكامل في بلد السيادة فيه للديمقراطية وحدها.

أسـوار عالية قديمة.. جسـور حديثة.. طيور النورس تحلق فوق

مراكب الصيادين.. زرقة مياه البوسفور التي تميل إلى اللون الرمادي الداكن.. اللون الأخضر بكل درجاته وتكويناته يسيطر على المشهد في الحدائق والمتنزهات.. تركت نفسي للصدفة، فإذا بأبواب المترو تنفتح من تلقاء نفسها في محطة «السلطان أحمد»، وكأن شيئًا ما يحثُّني ويدفعني لمغامرة مثيرة في هذا المكان.

ينفض التاريخ عن نفسه غبار الزمن، ويتحلى بثوب جديد.. غالبًا ما تكون قبلة السائح الأولى إلى مسجد السلطان أحمد أو كما يطلقون عليه «الجامع الأزرق»؛ حيث تحتوي جدرانه على 2020 قطعة رخام يغلب عليها اللون الأزرق وهو لون السماء، أقرب مكان إلى الله.. ويمنع الحسد وفقًا للمعتقدات الشائعة في تركيا.

ها أنا أقف الآن أمام أجمل مساجد الأستانة وأفخمها. للحظة استشعرت في داخلي لحنًا أو ربما ابتهالات سماوية، فمآذنه الست توحي للناظر إليها برهبة وجلال. اقتربت أكثر من المشهد، وقرأت الكتابة الأثرية المنقوشة على أحد أبوابه وهي تدل على أنه شيد بين عامي 1609و1616م.

المساجد بشكل عام -في زمن السلاطين- كانت تشيد من أجل تخليد اسم السلطان؛ أي أنه بمجرد أن يتولى الحكم يقوم على الفور ببناء مسجد ويطلق عليه اسمه، وعندما يتوفى يدفن داخله. وبقدر عظمة بناء المسجد، تتجسد قوة وعظمة وهيبة السلطان؛ لذلك عندما قرر السلطان أحمد تشييد مسجد له، كلف المعماري محمد أغا أحد

أهم المعماريين آنذاك بتشييده على شرط أن يفوق المسجد كنيسة «آيا صوفيا» في جمال العمارة والتصميم الهندسي.

يحيط بالمسجد سور مرتفع من ثلاث جهات، ويتخلل السور خمسة أبواب: ثلاثة منها تؤدي إلى صحن المسجد، واثنان إلى قاعة الصلاة. الصحن عبارة عن فناء كبير يسبق المسجد، وتحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة من الجرانيت، ولها تيجان رخامية ذات مقرنصات.. وفوقها نحو ثلاثين قبة صغيرة.. تتوسط الصحن ميضأة سداسية الشكل تقوم على ستة أعمدة. أكبر الأبواب التي تؤدي إلى الصحن هو الذي يتوسط الجانب الغربي ويظهر فيه التأثر بالأساليب الفنية الإيرانية، أما البابان الآخران فهما أصغر منه، لكنهما من الطراز نفسه.

خلعت الحذاء ودخلت من باب المسجد، وإذا بالدهشة تتلبسني، فكأنني أقف داخل مسجد محمد علي باشا في قلعة المقطم بالقاهرة! مع اختلاف بعض التفاصيل فقط؛ قطع الرخام تم جلبها من منطقة «إزنيك» التي تبعد عن إسطنبول مسافة 200كم تقريبًا.. هيبة وبهاء يضفيهما على المكان ضوء النوافذ الموجودة بوفرة في القباب والجدران.. جو من الروحانية والصفاء يلف الفضاء من حولي بفضل انعكاس الضوء على الرخام الأزرق.

لم تدخل الكهرباء في تركيا إلَّا عام 1910، وحتى هذا العهد كان الأتراك يستخدمون الشموع والقناديل.. وهو ما يفسر انتشار

القناديل المعلقة بالمسجد، والتي كان يستخدم الدخان المتصاعد منها في صناعة الأحبار التي دونت بها معظم الكتب القديمة.. قنديل رخاء واطمئنان يضيء للزائر.. وقوده هو الصلاة وقراءة القرآن.

يزين المسجد عدة لوحات خشبية معلقة، تحمل من المعاني والقيم الكثير.. كتب على إحداها مثلًا: «كاشف الدين كمال» وهي دعوة لكل إنسان لأن يبحث عن الكمال بقدر معرفته لدينه أكثر ومدى تعمقه في دراسته.. لوحة أخرى تقول: «الكاسب حبيب الله» وفيها إشارة إلى زمن تنابلة السلطان الذين كانوا يمضون وقتهم في الصلاة والأكل والنوم فقط، وهو ما دفع السلطان أحمد إلى التصدي لتفشي هذه الظاهرة آنذاك، وأطلق دعوته هذه للحث على العمل وكسب الرزق. من بين اللوحات كانت هناك واحدة لتكريم بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلَّم، كتب عليها: «حضرة بلال حبشي».

ما إن انتهيت من أداء صلاة الظهر حتى خرجت إلى ساحة المسجد مرة ثانية، وإذا بمرشد سياحي يروي للوفد الذي يرافقه قصة بناء هذا المكان، وقد تطرق إلى الصعوبات التي لاقت عملية تشييد المآذن الست حيث كان المسجد الحرام يحتوي على ست مآذن أيضًا وهو ما جعل السلطان يتلقى نقدًا لاذعًا تجاه فكرة تشييد المآذن الست! لكنه تغلب على هذه المشكلة وتلاشى الحرج عندما قرر تمويل بناء المئذنة السابعة في المسجد الحرام.

توقفت بي ساعة الزمن.. ورحت أتجول دون أن أشعر بمضي

الوقت في الجامع الذي يضم مدرسة، ومكتبة، وحمامًا تركيًا، ومطبخًا، وغرفًا لنوم المغتربين تعرف باسم «كروان سراي»، والتكية التي كانت تفتح لضيوف المسجد في فصل الصيف..

إحساس جميل تصفو له نفسك وتستعذبه روحك وأنت تقف في هذا المكان الذي تحيط به هالة من النور والهيبة، خاصة عندما يرفع صوت الأذان.

***

أمام المسجد مباشرة يمتد ميدان السلطان أحمد الذي كان معروفًا في السابق باسم «ساحة الهيبودروم» حيث كانت مضمار سباق الخيل البيزنطي. تحفّ الميدان أشجار وزهور بديعة الألوان، وتتوسطه حديقة مصممة ومرتبة تضم مقاعد خشبية. الساحة المفتوحة على السماء تضم مسلتين: إحداهما مصرية جلبت من معبدالكرنك في القرن الرابع لتزيين المكان.. والثانية رومانية شيدت بالبرونز وكتب عليها تاريخ روما، غير أن المسلة الرومانية تعرضت عبر السنين لسرقة البرونز من عليها، ولم يتبق منه سوى القليل الذي صنع منه عملات نقدية في أعقاب حقبة السلاطين؛ لذلك يبدو شكلها اليوم متواضعًا للغاية. تضم الساحة أيضًا عمودًا ملتفًّا ونافورة أهديت لإسطنبول من الإمبراطور الألماني وليم الثاني عام 1900 بعد زيارته للإمبراطورية العثمانية عام 1898.

وتشير كتب التاريخ إلى أنه في أعقاب زمن الإمبراطورية الرومانية

تعرض الهيبودروم إلى التدمير من قبل الزلازل والحروب، وما تبقى من أطلال حطام المدرج الروماني من رخام تم استغلاله في بناء القصور والجوامع.

أرهف السمع، فيحكي كل ركن من أركان الميدان الذكريات التي حملها في زمن السلاطين؛ من احتفالات عديدة خاصة بالسلطان، واستعراض للجيش، وحفلات الطهور للأطفال، وغيرها.. أما اليوم فهي تمثل القلب المفتوح للمدينة، تحديدًا في شهر رمضان حيث يقام فيها سهرات رمضانية تحييها فرق موسيقى التراث وفرق الإنشاد الديني، ويتخللها أيضًا سباقات للأطفال.. كما ينتشر طوال الشهر الكريم باعة الكتب، والحلوى، والمقاهي التي يتجمع فيها الناس لشرب الشاي والشيشة (الأرجيلة).

على مرمى البصر لمحت -على بعد أمتار قليلة من هذا الميدان- تحفة معمارية غاية في الجمال والإبداع. عبرت الطريق مسرعة حتى اقتربت من المبنى فوجدتني أقف أمام جلال مشهد آخر.. بي ألف انفعال.. ألف عاطفة.. ألف إحساس..

فسيفساء بيزنطية.. لوحات قرآنية.. رسومات للسيد المسيح والسيدة العذراء.. لوحات كتابية ضخمة كتب عليها اسم الجلالة الله، ومحمد عليه الصلاة والسلام، وأسماء الصحابة.. كل هذه المفردات تجدها في «آيا صوفيا».

يمثل متحف «آيا صوفيا» ذاكرة الوعي الجمعي لشعب يحتفي

الكون بعمر حضارته كل عام.. ولعل الثراء العقائدي لدى المواطنين الأتراك يعود إلى موروث مدينة إسطنبول التي يذكرها التاريخ بمدينة «الإمبراطوريات الثلاث» وهي: روما، بيزنطة، الدولة العثمانية. من هنا نلاحظ هذا الزخم والثراء في مفردات بناء هذا الصرح العظيم.

البداية كانت عندما قرر الإمبراطور جوستينيان تشييد كنيسة عظيمة البناء تجعل من إسطنبول مركزًا للمسيحية في العالم. من هذا المنطلق، أخبر جميع المدن المحيطة والتابعة للدولة الرومانية كي ترسل إليه أفضل مواد للبناء وأعظم خامات تكفي لبناء صرح شامخ تحكي عنه الدنيا كلها. وقد كلف كل من طرلس وأنطيموس، وهما أفضل معماريين آنذاك في الأناضول - تشييد الكنيسة. بفضل العمل الدءوب والمتواصل على مدى ساعات اليوم كاملة من قبل عشرة آلاف عامل، تم إنجاز العمل في خمس سنوات فقط (بدءًا من 532م وانتهاء في 537م).

وللكنيسة 9 أبواب للدخول: الباب الأوسط مخصص للإمبراطور فقط، ويليه باب من اليمين واليسار لدخول أبناء الطبقة الأرستقراطية والأغنياء، وباقي الأبواب مخصصة للعامة والبسطاء والنساء.

غير أن الكنيسة تحولت إلى مسجد عام 1453م عندما فتح السلطان محمد الثاني (الفاتح) المدينة؛ حيث صلى في داخلها أول صلاة جمعة بعد ثلاثة أيام فقط من الفتح. وحاول المسلمون آنذاك أن يضفوا عليها ملامح المسجد، فافترشوا الأرض بالسجاد الفاخر، ونظرًا لأن الإسلام يمنع الصور في دور العبادة فقد تم تغطية الأيقونات

والرسومات الموجودة بعضها بالقماش والبعض الآخر بالأسمنت. ووضع العثمانيون داخل المسجد مجموعة من اللوحات القرآنية، بالإضافة إلى أربع لوحات كتابية ضخمة شبه دائرية في أعلى الأعمدة الأربعة الرئيسية وفي بطن القبة من جهة المحراب كتب عليها اسم الجلالة «الله»، واسم سيد الخلق «محمد»، وأسماء الصحابة رضي الله عنهم.

وأخيرًا، قام مصطفى كمال أتاتورك مؤسس دولة تركيا الحديثة بتحويل «آيا صوفيا» إلى متحف يضم المئات من الكنوز الإسلامية والمسيحية التي لا تقدر بثمن. وعلى الفور، تم كشف النقاب عن الصور القديمة المغطاة لسنين طويلة والتي ما زال الكثير منها يحتفظ بجمال ألوانه ورونقه. فنرى، على سبيل المثال، أعلى البوابة المخصصة لدخول الإمبراطور في السابق صورة بديعة للسيدة مريم العذراء وعلى يسارها جبرائيل، بينما ينحني الإمبراطور على يسارها ليقدم الهدايا.

أي لحن مخلّد سرمديّ تنقشه الجدران! أي لحن رقراق راح ينساب في الأفق!

وكأن الكون يهتف من حولي باختلاف اللغات والألوان: يارب! ضاقت روحي بالأرض.. بالأسر.. بالقيد.. فحرر روحي وفك قيودي يارب العالمين. آمين

لم يخرجني من روحانية وصوفية المشهد سوى أصوات مجموعة من الأطفال كانوا يعبثون عند عمود رخامي ضخم مغطى بالبرونز. اقتربت منهم فوجدت كل طفل على حدة يضع إبهامه في منتصف دائرة

موجودة به، ويلف كف يده بالكامل بزاوية 360 درجة! ثم يتمنى ما يشاء من الأمنيات. دفعني الفضول لسؤال حارس المكان عن هذا العمود، فأخبرني بأن الكثير من الحكايات والأساطير نسجت حوله. يحكى أن هذا العمود كانت تنبع منه مياه مقدسة، حتى إن السلطان كان يفضل استخدامها في الوضوء للتيمن بها. إلّا أن الواقع العلمي -مع مرور السنين- أكد أن نوع الرخام نفسه المصنوع منه العمود يمتص الكثير من المياه، ثم ينضح ببعضها على السطح.

قبل أن أودع المكان، فوجئت بقط أبيض كبير يلهو أسفل لوحة معلقة قرب المدخل ويتطلع لي بعينيه الضيقتين.. من فرط انبهاري بالفن المعماري للبناية لم ألتفت لهذه اللوحة عند مجيئي! دنوت منها.. فإذا هي لوحة تضم صور رؤساء وزعماء دول جاءوا لزيارة هذا المكان المقدس.. صور عديدة لشخصيات عامة ومشاهير تعكس أهمية المكان وقيمته في عيون العالم.. وهو ما يجذب إليه كل عام آلاف السائحين، مسلمين ومسيحيين.

أدمع الشوق ترقرقت في المآقي! كل ما في الوجود من حولي يسبح باسمك يا ألله.. المجد لله في الأعالي. فإذا كانت كلمة «آيا صوفيا» تعني باللغة التركية «ملك للإله» فإنها بلغة الإنسانية تعني التعايش مع الآخر، ونبذ الطائفية، ومحاربة التمييز. لا شك أن المكان فيه عبق.. ورمز.. وبعد وقيمة..

***

الباب الرابع
حيــــاة الســلاطيــــن

عيناي تعانقان الشوارع النظيفة بأشجارها وحدائقها.. وبناياتها القديمة والحديثة.. ومشهد القصور العظيمة المتراصَّة على جانبي البوسفور.. توقفت السيارة أمام صرح عملاق يحيط به اللون الأخضر من كل حدب وصوب.

«دولما باهتشي».. هو حلم يفسر على أرض الواقع فتجده حقيقة مبهرة.. أعمدته شاهقة الارتفاع.. السلالم يبرق رخامها كأنه مرآة للعز.. الأبواب والأسقف والحدائق تعكس جميعها زينة وبهاء الإمبراطورية العثمانية.. وهو ما يدعو زائر هذا المكان إلى فتح عينيه على آخر اتساعهما حتى لا يفوته جزء من المشهد؛ هذا المشهد الذي يجسد التعبير عن حب وفهم لقيمة الجمال والتصميم والتنفيذ.

منذ اللحظة الأولى لاجتيازنا الأسوار وبرج الساعة، وجدتني أقف أمام قصر ناصع البياض يستحم في ضياء الشمس في فضاء ملون يطغى عليه اللون الأخضر.. مستلقيًا في دلال على امتداد 600متر من مياه البوسفور. القصر له أربع بوابات برية وبحرية ويتكون من ثلاثة أقسام، هي: السلاملك مقر الحكم، والحرملك مكان النساء، وبهو الاستقبال مكان الاحتفالات بالأعياد والمناسبات المختلفة، كما يحتوي على 43 صالة واسعة و285غرفة.

أمر السلطان عبدالمجيد الأول ببنائه في منتصف القرن التاسع عشر، تحديدًا في عام 1856م. واستغرق تشييده نحو 13 عامًا، بتكلفة قاربت المليار ليرة ذهبية ليصبح من آيات الفن المعماري البديع.

قضيت وقتًا في محاولات الخروج من أسر هذا الصرح الرابض في قوة وجمال، والذي تتجلى فيه بوضوح رموز البذخ السلطاني وحياة الرفاهية حيث الحدائق الغنَّاء وثراء الجداريات والمفروشات رائعة الجمال التي جلب معظمها من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا.. إلى جانب أرضيته المصنوعة من الخشب وجدرانه المغلفة بالرخام والمزينة بالذهب وأسقفه المزينة بالرسوم الفنية التي قام برسمها وهندستها الأخوان ساركيس وجرابت بليان مصمما هذا القصر البديع وكانا أفضل معماريين في القرن التاسع عشر، وقد أسهما في تشييد أغلب القصور المطلة على مضيق البوسفور.

كل هذا الجمال الباذخ الأخاذ في عمارة القصر استخدم فيه ما يقرب

من 40 طنًّا من الفضة و14 طنًّا من الذهب، أما السلالم الرئيسية التي تقود إلى غرفة استقبال السلطان لضيوفه فهي مصممة من الكريستال الأصلي. وفيما يتعلق بالسجاد الموجود بالقصر فهو مصنوع يدويًّا.. تم شراؤه من منطقة الهركي التي كانت تنسج السجاد خصيصًا للقصر، ولم يكن العامة أو الفقراء يستطيعون آنذاك شراء منتجاتها من السجاد نظرًا لارتفاع أسعاره، وبالنسبة للدببة الفرو التي تفترش بعض أرضيات الغرف فهي قادمة من روسيا.

من بهو إلى آخر.. ومن قاعة إلى أخرى.. أينما تلتفت تر لوحات بديعة بأحجام مختلفة، معظمها لفنانين روس وإيطاليين وفرنسيين. في إحدى الزوايا بالقصر، ترى لوحة التحضير لموسم الحج والاستعداد له، وهي من أكثر اللوحات جمالًا من حيث الخطوط والتفاصيل والألوان، وفيها تبدو الجمال محملة بهدايا الأثرياء وهي في طريقها للأراضي المقدسة. ويتبع الجمال الكثير من العامة والبسطاء ممن يقصدون زيارة البيت الحرام لأداء فريضة الحج.

وفي المسافة بين عمق الماضي ورحابة الحاضر يأخذ الصدق أكبر المساحات في لوحة تجسد فتح إسطنبول على يد السلطان محمد الفاتح والجيش يسانده من الخلف. وكم هي رائعة تلك اللوحات المرسومة لوجوه بعض السلاطين: السلطان عبدالمجيد، السلطان عبدالعزيز، السلطان عبدالحميد، والتي من فرط جمالها وإتقان الفنان لتفاصيلها كادت تنطق وتتحدث عن زمن السلاطين.

وضمن اللوحات التي يزخر بها هذا الصرح المعماري، كانت هناك لوحة الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا السابقة، وقد خصص لها موقع متميز في القصر. من المعروف أن الملكة فيكتوريا أهدت السلطان عبدالمجيد أعظم ثريا بلورية تزن 4.5 طن من الكريستال البوهيمي الفرنسي، وهي تحتوي على 750 مصباحًا. وضعت هذه الثريا في بهو الاستقبال الواسع بأعمدته الستة والخمسين الشاهقة.. وهي تعطي منظرًا بديعًا عند إضاءتها في المناسبات والأعياد.

يضم القصر مقتنيات عديدة، منها ساعة أحسست فيها رائحة مصر. وهي بالفعل قادمة من مصر حيث أهدى محمد علي باشا الكبير هذه التحفة التي تعد ساعة وترمومترًا وبارومترًا في آنٍ واحد إلى السلطان عبدالمجيد بمناسبة مرور 25 سنة على توليه الحكم. وقد كتب عليها عبارة تهنئة يدعو له من خلالها بطول العمر. مضمونها: «إن شاء الله كل ثانية يصير عندك ساعة.. وكل ساعة يصير عندك سنة».

كان دولما باهتشي في الماضي مقرًّا لإقامة العديد من السلاطين العثمانيين. وقد انتهت فيه مرحلة الدولة العثمانية والسلاطين برحيل السلطان وحيد الدين إلى مصر 1912، غير أنه بعد قيام الجمهورية التركية الحديثة اتخذ مصطفى كمال أتاتورك مقر حكمه في العاصمة أنقرة، لكنه كان يسكن دولما باهتشي كلما قدم إلى إسطنبول. وعندما مرض بالسل في آخر أيامه، فضل العيش في القصر لشهور معدودة في غرفة بسيطة تحوي سريرًا ومكتبًا ومنضدة فقط، فهو لم يكن عاشقًا لحياة

الترف. عاش فيها حتى توفي يوم 10 نوفمبر 1938. وتركت أبواب القصر مفتوحة لمدة يومين أمام الجماهير الراغبة في توديع جثمانه.

قصص كثيرة وحكايات شهدتها جدران هذا القصر المطل على مياه البوسفور.. قصص سجلها التاريخ ويشهد عليها الزمان.

***

ينافس دولما باهتشي من حيث الإقبال السياحي قصر «توب كابي»، وتعني الكلمة بالتركية «باب المدفع». وهو يعتبر من أهم الآثار التاريخية بالمدينة حيث كان مركزًا للخلافة العثمانية لأكثر من 300 عام بداية من القرن الخامس عشر.

قبل الوصول إليه جابت بنا السيارة عدة شوارع وأزقة تقع خلف القصر مباشرة، من بينها شارع كتوكيشيو المعروف ببيوته الخشبية. كان الغجر يسكنون هذه البيوت في الماضي، أما اليوم فقد أصبح الشارع يتميز بوجود العديد من البنسيونات (الفنادق الصغيرة) التي يتردد عليها الشباب الأوروبي؛ نظرًا لأنها تقع في مركز المدينة وأسعارها مناسبة لإمكاناتهم المادية البسيطة.. أحسست وأنا أتأمل جدران البيوت وشرفاتها بأن لحنًا حزينًا يلف المكان.. يشكو غياب أهل الديار الأصليين وينعى غيابهم البعيد.

كانت عيناي تعانقان الشارع النظيف بأشجاره، وبناياته الخشبية، والبشر الذين يسيرون فرادى من ضيق المساحة. لفت نظري مقهى قديم تطغى عليه روح وتفاصيل المقهى التركي الأصيل، عليه لافتة

تحمل اسم «إرول تاتش» وهو فنان شهير هناك. كل ركن من أركان هذه المنطقة يختزل العديد والعديد من ملامح زمن جميل مضى.

على بعد خطوات من المقهى، وصلنا إلى بوابات قصر توب كابي التي يقابلها مباشرة سبيل السلطان أحمد الثالث، وهو يعد تحفة معمارية حقيقية. وقد أكد لي بعض الأتراك الواقفين أمامه أنه يعد أفضل سبيل من حيث البناء المعماري في تركيا كلها. يحكى أن بعض السلاطين كانوا يقدمون من خلاله العصائر -إلى جانب الماء طبعًا- كي يجنوا محبة الناس والدعاء لهم بالصحة وطول العمر.

القصر الذي تبلغ مساحته 700 ألف متر مربع، محاط بـ 27 برجًا وأسوار عالية يتخللها 3أبواب بحرية تطل على نقطة التقاء البوسفور والقرن الذهبي وبحر مرمرة.. وأبواب أخرى برية، هي: باب الحماية، وباب السلامة، وباب السعادة.

منذ اللحظة الأولى لعبور «باب الحماية»، تسلل إلى قلبي جمال عمارة القصر بملحقاته المتناثرة كحبات مسبحة وسط الحدائق والمتنزهات والتي تمتد على مساحات شاسعة.. بالإضافة إلى جدرانه العالية وأسواره الشاهقة وقلاعه العتيدة التي تضفي عليه هالة من الهيبة والقدسية.

هناك أعلى باب الحماية توجد لوحة كتب عليها «السلطان ظل الله في الأرض» تعبيرًا عن مكانة السلطان في عهد الدولة العثمانية.. وكان الباب مخصصًا في الماضي لدخول العامة والبسطاء.

على يساره، تتجلى أمام عيني كنيسة قديمة في ثوب وردي اللون.. هي كنيسة «آيا إيريني» التي بناها الإمبراطور جوستينيان. تتميز ببساطة عمارتها، وهي تأخذ شكل الصليب من الداخل. ونظرًا لوقوعها داخل أسوار القصر، لم يفكر السلطان محمد الفاتح في تحويلها إلى مسجد كما فعل بباقي كنائس إسطنبول، وإنما أبقاها على حالتها لتكون مكانًا مناسبًا للصلاة لكل ضيوف القصر من المسيحيين.

الكنيسة اليوم ليست مفتوحة أمام الجماهير كدار للعبادة، لكنها تفتح أبوابها فقط أمام المعارض وحفلات الموسيقى الكلاسيكية، خاصة أنها تعد أفضل كنيسة في إسطنبول من حيث صدى الصوت. لا شك أن عبقرية الموقع وسحر الطبيعة ينعكسان على الزائر بشكل كبير.. ويجعلانه يستشعر تراتيل سماوية تأتيه من الفضاء.. وتجبره على ذكر الله والتسبيح بحمده.

وصلت إلى الباب الثاني «باب السلامة» الذي يعلوه برجان للمراقبة، أشبه بالأبراج التي كانت تشيّد في القرون الوسطى بأوربا.. ترجع تسمية الباب بهذا الاسم إلى أن السلطان عند عودته من رحلاته وأسفاره كانت الأم والزوجة تستقبلانه لدى هذا الباب لتقولا له: «حمدًا لله على سلامتك».. وبالطبع كان محظورًا على العامة الدخول منه.. لكنه كان مخصصًا فقط لأسرة السلطان والجيش العالي الإنكشارية ووزرائه ومعاونيه المباشرين.

أخطو وسط الحدائق الغنّاء بأشجارها الخشبية وكأنني أدخل

لوحة فنية تأثيرية للفنان الفرنسي أوجست رينوار.. رحت أستوحي الصفاء في جو مفعم بالشاعرية.. تنطلق روحي في الرجاب الأخضر وتخلد النفس إلى السكينة، مستمتعة بالإصغاء التام لحديث الطبيعة من حولي.

لم يقطع الحلم سوى بزوغ صرح ضخم على اليمين هو مطبخ القصر الذي يضم داخله أواني الطعام المصنوعة من الفضة والخزف.. كم كانت دهشتي كبيرة أمام حجم المطبخ الذي توزع على عدة مبانٍ منفصلة بنيت تحت 10 قباب. عاش في هذا القصر 1300 طاهٍ بالقرن السابع عشر، وقد تحدد لكل منهم تخصصه في مجال معين من الطهو: سواء اللحوم، أو الأسماك، أو الخبز أو الحلويات.. كان على هؤلاء الطهاة إرضاء وإشباع ما يزيد على عشرة آلاف شخص يوميًّا من قاطني القصر أو أولئك المقربين الذين يعيشون في المدينة وتشملهم المكرمة السلطانية. كم هي مبهرة أيام السلاطين!

وإذا كان غذاء البطون شُيّد من أجله صرحٌ عظيمٌ، فإن غذاء العقول قد شُيّد له صرحٌ أعظم في مواجهته على اليسار؛ حيث توجد دار الكتب.. وإلى جوارها يستقر مبنى إدارة شئون الخلافة الذي كان يجتمع فيه الوزراء لاتخاذ القرارات. وبعد المداولة، يقوم *الوزير الأعظم* برفعها إلى السلطان مما يضطره لعبور البوابة الثالثة «باب السعادة».

خلف «باب السعادة» شُيّد العديد من المباني الحيوية، منها: مقر إقامة السلطان، والحرملك الذي يضم غرفة والدة السلطان، وغرف زوجاته

وأطفاله وجواريه.. من بين الغرف، كانت هناك واحدة مخصصة لطهور ابن السلطان، جدرانها يكسوها الرخام وتتوسطها طاولة.

قادني الفضول للمضي قدمًا من أجل تعرُّف - أكثر فأكثر - حياة السلاطين. ها أنا أقف بالشرفة التي كان السلطان يفضل تناول إفطاره بها طوال شهر رمضان، وهي تطل من أعلى مكان بالقصر على خليج القرن الذهبي وجامع السليمانية في مشهد بديع يصعب وصفه.

على مقربة من هذا المكان، توقفت عند باب خشبي عملاق.. هو «الكيلار» أو المستودع الذي كان يتم من خلاله تخزين وحفظ الطعام. المكان في حد ذاته يذكرني بمعامل الأبحاث والدراسات الخطيرة. كل ما يمكن أن يرد إلى ذهنك من طعام ستجده هنا مجففًا: الخضراوات.. الفواكه.. البقول.. المخللات.. كل ما تشتهيه نفسك، كان العثمانيون يجيدون فنون تخزينه.

ونظرًا لأنهم كانوا يعشقون محشي الضولمة، فقد كانوا يجففون العناصر الأساسية واللازمة لطهوه تحت الشمس.. فترى الفلفل الرومي والكوسة والباذنجان معلقة في الأحبال بطرق معينة، وبذلك كانت الضولمة متوافرة طوال شهور السنة في دولة السلاطين.

مبنى آخر يعرض داخله العروش التي جلس عليها سلاطين الدولة العثمانية، من بينها عرش آية في الجمال مغطى بالكامل بالذهب والزمرد.. تخطف أبصارك الأضواء المنبعثة من قطع الحلي بألوانها

وأطيافهـا البراقـة.. هنا توجد أكبر قطعة ألمـاس في العالم.. يحكى أنها كانـت في الأسـاس ملـكًا لوالدة نابليـون بونابـرت.. كل القطع من قلادات وحلي تسلب العقل هنا من فرط إتقان صنعها وكم الأحجار الكريمة التي تدخل فيها بتناسق وتناغم شديد بالغ الدقة.

في مبنـى ملحـق لهذا المكان، يمكنك مشـاهدة سـيوف وأسـلحة السلاطين التي خاضت بها الدولة العثمانية حروبها. وقع بصري على عمـل فني رائع عبـارة عن خنجر ذهبـي مرصع بالزمـرد والألماس، وتتوسـط مقبضـه سـاعة ثمينة. مـا عرفته أن هـذا الخنجر يعـد رمزًا لقصر التوب كابي، وسفيرًا لتركيا بالمعارض التي تقام بالخارج.

ولما للأتراك من خبرة طويلة في تنشـيط السياحة، فهم لا يقدمون عـلى عرض كل مـا يمتلكون من مقتنيات وكنـوز أثرية مرة واحدة.. وإنما يتم عرض مجموعة واحدة فقط من مقتنيات القصر، ثم تغييرها بمجموعـة أخـرى من وقت إلى آخـر لضمان جذب أكـبر عدد ممكن من السـائحين بفضل تنوع المقتنيـات المعروضة وتقديم الجديد دائمًا. وبهذه الطريقة، يظل الزائر متعطشًـا عند قدومه كل مرة لزيارة المكان لاكتشاف المزيد والمزيد من كنوز الأجداد وتعرُّف خبايا التاريخ.

عنـد زيارتك لـ «تـوب كابي» يجب ألا يفوتك المرور على «جناح الأمانات المقدسة»، وقد جلب جميع ما فيه من مقتنيات من مصر بعد فتحها عام 1517 على يد السلطان سليم الأول.

شيء ما يشدك قسرًا إليه؟! ما من مفر!

هو يعد أهم وأقدس مكان في القصر؛ لما يحوي من آثار لسيد الخلق محمد ﷺ (شَعرته، وبُردته، وإحدى أسنانه، وقوسه، وسيفه).. كم اهتزت نفسي من رهبة وعظمة لما رأته عيناي من مقتنيات، خاصة عندما توقفت أمام جزء من باب الكعبة القديم «باب التوبة» وكأنني أشم مسك الحرم المكي تأتي إلى إسطنبول في طرفة عين! عالم كبير مليء بالأسرار والحكايات.. تقرؤه في مفاتيح الكعبة، وسيوف بعض الصحابة.. تلمحه على عمامة النبي يوسف.. تتأمله في قدر النبي إبراهيم.. أو جزء من جمجمة يحيى المعمدان التي كان الصليبيون يحملونها في الحروب اعتقادًا منهم بأنها تجلب الحظ.

كنت أسمع حديث المقتنيات وهي تروي قصص أناس رحلوا عن عالمنا بأجسادهم لكنهم خالدون بتاريخهم.

أمر بالحديقة الخشبية الرائعة التي يتميز بها القصر، وهي تعرف بـ «جول هانا» أي «بيت الورد الجوري».. يمكنك فيها تناول الغداء لتعرُّف المذاق الأصلي للمطبخ التركي.. أو الاستمتاع بمنظر غروب الشمس مع فنجان من القهوة.

***

غير أنني كلما اشتقت للوطن الأم.. بلادي العزيزة ومهجة الفؤاد مـصر.. وجدتنـي أستقل الـترام وأقصد محطـة «أمين أونـو» حيث أكون على موعد هناك مع «السـوق المصري».. ما إن تطأ قدماك هذا المكان حتى تستشـعر في تفاصيلـه كما لو أنك دخلـت مدينة عتيقة لم يتـوار تراثهـا ومعالمها بسـبب عوامل الزمن. السـوق مسـقوف وله أربعـة أبواب يقـف عليها حرس تركي لتأمين المـارة من أي حوادث سرقـات. وبخلاف ما يمثله من مقصد سـياحي هام للسـائح العربي بوجه الخصوص، يحمل المكان في جنباته رائحة خان الخليلي...

فيه تشـم رائحـة التوابل والمكسرات.. والشـاي بنكهاته المختلفة اللذيـذة، فهناك شـاي بالتفاح، والبرتقـال، والليمـون.. إلّا أن أكثر مـا يبهرني هـو التكوينات الهرميـة للتوابل بألوانها السـاخنة: الأحمر، والأصفـر، والبرتقـالي.. تصطـف إلى جانبهـا علـب الملبـن الفاخر والتـي يطلق عليهـا «لوكوم»، منها سـادة أو بالمكـسرات. كما يتفرع من السوق عدة أسواق داخلية متخصصة في الجينز وفساتين الأفراح ومستحضرات التجميل والمفروشات...

يحكى أن السلطانة خديجة هي التي أمرت بتشييده في القرن السابع عشر الميلادي. ولقب بالــ «مصري» نظرًا إلى أن التجار الأتراك قديماً كانوا يجلبون بضاعتهم بشكل أساسي من مصر.

سـاعات طـوال مـن التسـوق تمـضي دون ملل، عـادة مـا تنتهي بالجلـوس عـلى أقـرب مقهـى كـي تسـتريح بعـض الـشيء وتلتقط

الباب الخامس
طـــوف وشـــوف

كعادتي دائمًا في البلاد التي أقع في هواها، أجدني أتعمد الذهاب إلى أسواقها لتفقدها وأغوص في تفاصيلها.. وأرصد فيها روح الإنسان والمكان، فسمات الشعب وطبيعة الناس عادة ما تتجلى في المعاملات اليومية خاصة في الأسواق.

وسواء أكنت تهوى التسوق أم تبغضه، فأنا على يقين من أن كل سائح يزور إسطنبول يقضي ساعات طويلة في الأسواق القديمة والحديثة دون ملل نظرًا لضخامة وتنوع المعروضات هناك. فالصناعات التركية نجحت عالميًا وتميزت في جميع المجالات، تحديدًا في صناعة المنسوجات الحريرية بجمال ألوانها وتصميماتها الشرقية، والسجاد والفضة والخزف.

أنفاسك من جولة شاقة وممتعة.. وهي فرصة أيضًا لتناول القهوة التركي وبعض الحلوى العثماني.

***

ينافس السوق المصري من حيث الشهرة سوق آخر مغطى هو الجراند بازار.. أو كما يطلق عليه هناك «قبالي تشارشي».. هو واحد من أكبر أسواق إسطنبول.. يقع بين جامع بايزيد وجامع نور عثماني.. وقد تم إنشاؤه عام 1416م، ومنذ ذلك الحين وهو يحظى بشهرة عالمية.

له ثمانية عشر بابًا، أهمها وأكبرها باب «نور عثماني». وإن لم يكن معك مرافق يعرف الطريق جيدًا، لابد وحتمًا سوف تجد نفسك تدخل من شارع إلى آخر، ومن زقاق إلى آخر.. بلا نهاية.

في كل ركن من هذا السوق الضخم تجد شيئًا جديدًا يجذبك لقضاء وقت أطول فيه. فهو يحتوي على خمسة آلاف محل تجاري -معظم أصحاب هذه المحلات من اليهود والمسيحيين والأرمن- كما أن كل شارع من الشوارع المتفرعة عنه تتخصص في نوع معين من المنتجات.

هناك مثلًا شارع الصاغة، وشارع للفضة، وآخر للنحاسيات، وغيره للمجوهرات التقليدية والمصوغات العقيقية.

في شارع السجاد، قادتني الصدفة للقاء «رضوان» صاحب أحد محلات السجاد وهو من أصل عربي سوري. من خلال حديثي معه

عرفت أنه قضى في هذه المهنة أكثر من 28 عامًا، وتوارثها أبًا عن جد منذ مئات السنين. وقد أعرب لي -بأسى وحزن- عن تدهور الصناعات اليدوية اليوم، وكيف أنها لم تعد تلقى نفس الاهتمام الذي كانت عليه بالماضي. فقد كانت الأم التركية تعلم ابنتها كل فنون الإبرة والخيط، بما فيها نسج السجاد. وكانت الفتاة تصنع بيديها سجاد بيت الزوجية قبل انتقالها إليه. وأحيانًا، كانت تعتمد بعض النساء على هذه الصناعة لكسب العيش. لكن الوضع اختلف لما هو أسوأ مع الحياة العصرية حيث انصرفت الفتيات عن هذه الهوايات، وأعطين الأولوية للوظائف الحكومية والقطاع الخاص.. وهو ما انعكس بالسلب على صناعة السجاد اليدوي. وأصبحت هذه الصناعة تعتمد في يومنا هذا على الماكينات والآلات. وألمح رضوان إلى اعتقاده الراسخ بأن السجاد اليدوي ربما يختفي تمامًا من الأسواق في قادم الأيام.

لا أنكر أنني تفاجأت بأسعار السجاد الحريري، وأدهشني جدًا أن يبلغ سعر قطعة صغيرة منه 3500 دولار!! غير أن رضوان فسّر لي ذلك بأن السجادة الحرير تستغرق وقتًا كبيرًا وجهدًا مضنيًا في نسجها.. وكلما كبر حجمها، زاد الجهد المبذول فيها. لو افترضنا أن سجادة مساحتها متر مربع واحد فقط، فإن تنفيذها يستغرق فترة زمنية تتراوح من عام إلى عامين حتى تخرج إلى النور، على عكس السجادة الصوف التي يستغرق نسج مساحة قدرها 6 أمتار مربعة منها 8 شهور فقط!!

عادة ما يقبل على شراء هذا النوع من السجاد الحريري إما

أوروبيون ممن يعشقون الفن ويقدرون الجمال بأي ثمن.. وإما عرب من أثرياء الخليج.

أشكال السجاد وألوانه تختلف من منطقة إلى أخرى في تركيا. غير أن اللونين الأحمر والأزرق هما غالبًا السائدان والأكثر انتشارًا.. وهناك سجاد بالجراند بازار كان يحمل تيمات شرقية خاصة بدول عربية، مثل شكل الجمل الذي يتميز به الكليم البدوي في مصر.

في كل الأحوال، يعتبر هذا السوق المكان المناسب للباحث عن الفن المتميز والأصيل.. وهو بوتقة ثرية تنصهر فيها كل الصناعات الحرفية التراثية بما يجعله يعج بالحياة والحركة طوال النهار.

قطار الشرق السريع

من منا لا يشعر بالحنين إلى الماضي الجميل.. إلى أوروبا القرن العشرين.. لمجرد أن يسمع اسم «قطار الشرق السريع»؟!!.. هذا القطار الأسطورة الذي نسجت حوله القصص والروايات. كان القطار بعرباته الزرقاء والمذهّبة يقل ملوكًا وزعماء.. مشاهير ورجال أعمال.. شعراء وأدباء.. سيدات العالم الراقي ذوات القبعات الأنيقة.. والرجل الإنجليزي الجنتلمان..

كم شهد هذا الخط الحديدي من رحلات سرية إلى قلب أوروبا قام بها سياسيون وجواسيس!! فمن المعروف أن الجاسوسة الجميلة ماتا-هاري ذات المصير المشئوم شاركت في بعض المواعيد واللقاءات التي نظمها جواسيس داخله.

كـم مـن راحلـين.. عابريـن.. رهائـن اغـتراب.. اسـتقلوا هذا القطار.. وطواهم ظلام الزمن البعيد!

كل مـا قرأت من قصص حوله -بعضهـا حقيقي وبعضها الآخر مـن ضرب الخيـال- اسـتعادته الذاكـرة وأنـا أقـف أمام مجسـم لهذا القطار، موجود في محطته التي لا يبعد موقعها كثيرًا عن ميدان تكسيم الشهير.. وهي على بعد خطوات قليلة أيضًا من دار الأوبرا.

تظـل المحطـة تحتفـظ برونقهـا وفخامتهـا المعمارية منـذ الزمـن البعيـد. ورغم قيام المسـئولين هناك بتجديد وتحديـث جميع قطارات الرحـلات، فإنهم لم يغفلوا وضع نموذج مجسـم خارج المحطة لقطار الشرق السريع.. أو كما أطلق عليه «أورينت إكسبريس».

انطلـق «أورينت إكسـبريس» عام 1883م لأول مرة، في مسـيرة أسـطورية، عـبر خلالها أوروبا من إسـطنبول إلى باريس.. وكان على متن هذا القصر الجوال في رحلته الأولى 40 راكبًا.

بـدأت حكاية القطار عام 1872م لدى عـودة صانعه البلجيكي جورج ناجيلماكير من رحلة إلى الولايات المتحدة حيث فُتن بخطوط السـكك الحديديـة هناك، وبهرتـه فخامة عربات البولمـان. فقرر بعد عودتـه من هذه الرحلة تجسـيد رؤيتـه الخاصة لقطار المسـتقبل. وتم بالفعل تدشـين قطار الشرق السريع في 4 أكتوبر 1883م.. وبدأ معه شكل جديد من السفر تكتنفه الأسرار.

لم يمـض عـام على التدشـين، حتى فـرض «أورينت إكسـبريس»

نفسه كأشهر وأسرع قطار في عالم الترف.. فقد قدّر له أن يكون جسرًا للتواصل بين الشرق والغرب. يذكر أن الزعيم التركي التقدمي مصطفى أتاتورك عندما تسلم السلطة عام 1923م، أشار إلى القطار باعتباره رمزًا للتكنولوجيا الحديثة والتعاون مع أوروبا.

شكَّل هذا القطار مصدر إلهام للشعراء والروائيين من هواة السفر.. من كوليت إلى جراهام جرين.. ومن فاليري لاربو إلى فلاديمير نابوكوف.. ومن جوزيف كيسيل إلى هيمنجواي وبول موران.. ولا يخفى على أحد أن الروائية أجاثا كريستي كانت من أبرز الشخصيات التي سافرت عبر هذا القطار الأسطورة. بل إنه كان مسرحًا لبعض أعمالها، فقد اختارت جو هذا القطار العابر لعوالم الشرق وأساطيره وخرافاته، لتكتب رائعتها الشهيرة «جريمة في قطار الشرق السريع».

غير أن الاحتلال النازي لفرنسا كان سببا في توقف خط لندن-إسطنبول. ثم انهار بالكامل العالم الساحر لهذا القطار بعد الحرب العالمية الثانية.. وتشتتت عرباته في مختلف محطات أوروبا.

ووفقًا لما تناقلته القصص، كانت تتميز كل عربة من عرباته بتصميمات فنية خاصة بها.. وكانت المقصورة الواحدة تكفي لشخصين بالإضافة إلى حمام مزود بالمياه الساخنة.. أما عربات الطعام، فكان لكل منها طراز فني مستقل!! فالعربة رقم 4141 استوحت تصميمها من طراز كوت دازور بفرنسا حيث كانت

جدران النوافذ زرقاء تصور الصبايا وهن يقطفن عناقيد العنب. بينما تتميـز العربة رقم 4110 بالزخارف الخشـبية المرصعـة.. وقد أطلق عليها اســم «نجمة الشــمال». كما كان يسـيطر جو الشرق الناعم على العربـة رقم 4095 حيـث كان يتوجه المســافر إلى مقصورته الخاصة عابـرًا ممـرًّا مرصعًا بخشــب الأكاجـو.. تضفي الأضـواء الخافتة فيه مزيدًا من السحر والجمال.

عابرًا بين الشرق والغرب.. راحلًا كما يشـاء نحو أقاصي المدى.. لكن بمجرد وصوله إلى ضفاف البوسـفور، كانت الفرق العسـكرية العثمانية تستقبل المسافرين بالموسيقى.. وكانت الأرض تغطى ببساط أحمر.. ويقوم بحمل حقائب السفر طاقم يرتدي أفراده الطربوش.

كان الاسـتقبال ملكيًّـا لضيـوف قطـار أسـطوري.. شـهد زمـن الأرستقراطية والأصالة.

***

ســيدة البحـــار

بعيـدًا عـن الأرض، لا تكتمـل الإقامـة في إسـطنبول إلا برحلـة بحرية إليها..

تـوج بجمالهـا جبـين البحر كلما غمرتها أشـعة الشـمس الذهبية، فتصير كحبات اللؤلؤ المنثور.. إنها «جزر الأميرات».. كانت الرحلة هذه المرة في حضن بحر مرمرة.

في صباح يوم جميل مشرق، انطلق بي التاكسي من أمام باب الفندق الذي كنت أقطنه بميدان تكسيم، في طريقه إلى ميناء «كبطاش».. هناك يمكنـك أن تحجز مقعدك بإحدى السـفن المتجهة إلى جزر الأميرات. طوال الطريق، لم أخف إعجابي الشـديد بأعلام تركيا الحمراء الزاهية التـي تتدلى من الشرفات وأسـطح المنـازل.. وترفرف عـلى واجهات المطاعـم والمقاهي.. وتنتشر على السـفن والمراكـب في البحر.. كدليل على عشق وتقدير واعتزاز الأتراك بعلم بلادهم الذي يجسد هويتهم.

تحركـت السـفينة في موعدهـا تمامًا، لتبـدأ بنا رحلـة بحرية مدتها سـاعة ونصف السـاعة. أنظر حولي إلى الوجوه النضرة المبتهجة التي تتحدث بلغة لا أفهم مفرداتها، فالسـفينة تحمل على ظهرها جنسيات عديـدة.. إلّا أن الحضـور العربي كان الأكثر بروزًا على سـطحها. بل كان من الصعب أن تنتقل من مكان إلى آخر دون أن تسمع أشخاصًا يتحدثون العربية.. لا شـك أن زيارة هذه الجزر تعد جزءًا رئيسيًا من البرنامج السياحي لأي زائر عربي في تركيا.

كنت قد قرأت في اليوم السابق لرحلتي عن هذه الجزر، وتزودت بالمعلومـات الكافيـة التي تتيـح لي أن أمتلك مفاتيحهـا وخرائطها.. فجـزر الأمـيرات تتكون من سـبع جـزر، أهمهـا: كانـلي، وبورجاز، وهيبـالي، وبيـوك آضـه. وقد سـميت بهذا الاسـم نظرًا لأنهـا كانت مصيفًـا للأمـيرات البيزنطيات، حتى فتحهـا القائد العثماني سـليمان بالطة أوغلو عام 1453م.

مـا أن لاحـت في الأفـق الجزر، حتـى بـدأت تتوافد إلى السـفينة أسراب كثـيرة مـن طيور النورس.. تحلـق فوقنا فرحًـا بقدومنا.. إنه استقبال الطبيعة لنا.. الطبيعة التي لم تمسسها يد بشر بسوء.

هنـا حيـث الجبـال الشـامخة، والبحرالواسـع، واللـون الأخـضر الطاغي.. يأتي عشـاق المنظر الطبيعي.. ومحبـو الجمال والنقاء. التلوث شـبه معـدوم على أرضهـا، فوسـائل المواصـلات مقصـورة فقط على «الحنطور» العربة التي تجرها الخيول.. حتى سـكان الجزيرة أنفسهم لا يملكون السيارات، ومعظمهم يتنقل بواسطة الحنطور أو الدراجات.

لـذا يعـم الهـدوء والسـكينة المـكان بشـكل ملحـوظ.. لا يقطع الصمت سـوى صوت خطوات أرجل الحصان الذي يجر الحنطور.. أو صوت طائر يحلق في السـماء.. أو غزال يجري وسـط العشـب على غير هدى...

تشتهر الجزر بمبانيها القديمة وبيوتها الخشبية وشوارعها الضيقة.. بها فنادق يعود تاريخ تأسيسـها إلى القرن الثامن عشر، تربض في قوة وجمـال، متحدية عوامل الزمن القاسـية.. هناك وسـط هذه الطبيعة الخلابة قضى تروتسكي أحد زعماء الثورة البلشفية الروسية عددًا من السنوات يكتب خلالها «تاريخ الثورة الروسية».

في هـذا الوجـود الرحـب، يـسري الحـب في روعـة وانطـلاق.. والسـماوات خاشـعات خلف الغيوم.. لا أدري لماذا في هذه اللحظة تحديدًا تذكرت أبيات شعر للرائعة فدوى طوقان، وهي تقول:

يا لهذا الصفاء ..يا لتجلّي الله.. يا روعة الجلال الفريد!

لكأني بالكون يهتف : يا رب، ويمضي مستغرقًا في الشرود

لكأني أحسّ وشك اتصالي.. لكأني أشم عطر الخلود!

أنا يا ربّ قطرة منك تاهت فوق أرض الشقاء والتنكيد

فمتى أهتدي الى منبعي الأسمى وأفنى في فيضه المنشود؟!

كل هذا الجمال الخلاب من حولك يجبرك على التصوف والتقرب إلى الله.. لا مفر!!

حان وقت الغداء.. وكان لابد أن نتذوق أطباق السمك التي يجيدون طهيها على الجزيرة.. وعادة ما يصاحبها مخبوزات ومقبلات غريبة ولذيذة.. أما الحلو فكان كنافة بالجبنة الساخنة، وهو طبق طيب جدًّا خاصة في الجو البارد. أثناء جلوسنا بالمطعم، فوجئت أنا وأصدقائي بعازف بيانولا جاء ليطربنا بألحانه الرائعة.. رحنا نتذكر معها أفلام السينما في بدايتها، خاصة أفلام شارل شابلن القديمة بمواقفها الساخرة والعفوية.. تعالت الضحكات وامتزجت بموسيقى البيانولا فتبدد معها هدوء الجزيرة.

مضى الوقت سريعًا.. وكان علينا العودة إلى صخب المدينة مرة ثانية..ودّعت الجزر وكلّي أمل في لقاء آخر يجمعني بها في يوم ما.. وبمجرد وصولنا إلى ميناء «كبطاش»، كانت شمس إسطنبول توشك على الأفول والسقوط الدامي في بحر مرمرة.

***

تركيا التي تبلغ مساحة أراضيها 814.578 كيلومترًا مربعًا، تطل على ثلاثة بحار: البحر الأسود في الشمال، ومرمرة وإيجة في الغرب، والبحر المتوسط في الجنوب.. بالإضافة إلى مضيقي البوسفور والدردنيل.. مما جعلها تستحق بجدارة لقب «سيدة البحار».

وإذا كانت هذه الممرات المائية تشكل مصدرًا حيويًا لجذب السياحة.. بيد أن جمهور البوسفور وعشاقه هم الأكثرية.. ما إن تستقل سفينة للتنزه في رحابه -عادة ما تستغرق الرحلة ساعتين- حتى تتأكد من هذه الحقيقة بنفسك. الكل يأخذ المكان المناسب على سطح السفينة كي يتمكن من الرؤية بوضوح والاستمتاع بالغوص في تفاصيل مياهه الشفافة الصافية.. ألوان الشروق التي يطغى عليها الأزرق بدرجاته.. تختلف تمامًا عن ألوان الغروب التي يسيطر عليها الأصفر والبرتقالي في هذه اللوحة الربانية.

كان لي حظ أن أعيش التجربة بكل ألوانها...

قصور فاخرة.. قلاع عتيقة.. أبراج شاهقة.. فيللات خشبية متراصة على جانبي المضيق في لوحة كونية رائعة يصعب على أي فنان أن ينقلها بريشته كما خلقها مالك الكون!! وكأنها صفحة ملونة من رائعة ألف ليلة وليلة!!

ملء قلبي فيض هناء ما له حد.. ودربنا المسحور يمتد.. وكأنني رأيت هذه المشاهد -من قبل- في أحلامي.. لكن الحلم لم يعد مستحيلًا!! وإنما صار واقعًا وحقيقة.. تغدو فرحتي فرحتين.. لكن السفينة تقطع الرحلة في لمحتين!! متعة لا تنتهي.. ونشتهي.

مشاهد كثيرة تلوح في الأفق وتسجلها عدسة الذاكرة.. كم أعجبني بيت «سعيد حليم باشا» - الابن الرابع لمحمد علي باشا الكبير- رابضًا في خيلاء فوق مياه البوسفور بلونه الأبيض الناصع. البيت الذي يقع في منطقة «يني كو»، قد تحول إلى دار ضيافة ومكان خاص لتنظيم الاجتماعات والمعارض.

على ضفاف حالة التوافق والتناسق التي تسيطر على المشهد كله من حولي، تجلى بجمال عمارته برج «جلاطة سراي».. وهو برج رمادي اللون، أسطواني الشكل، يشبه إلى حد كبير العمارة الأوروبية في القرون الوسطى.. كان يستخدم في الماضي كسجن حربي، أما اليوم فهو متحف.. به مصعد كهربائي ومقاهٍ ومطاعم فاخرة.

في رحلة العودة، بهرت أعيننا أنوار جسرين عملاقين.. تتلألأ عليهما الأضواء لتضيء سماء المساحات الزرقاء في مياه البوسفور.. جسر أتاتورك رابع أكبر جسر في العالم، ويبلغ طوله 1560 مترًا وعرضه 33 مترًا.. وجسر البوسفور أو «جسر السلطان الفاتح» الواقع بالقرب من حصن روملي الذي تم بناؤه في عهد السلطان محمد الفاتح.

كنت على موعد مع الجنة.. إنها جنة الله في الأرض.

يسكرك الأفق خمر الهوى.. ويفتح لك أبواب الفردوس على مصراعيها.

ظللت أتأمل هذا الجمال الأخاذ من حولي، وكانت مراكب الصيد

الصغيرة والبواخر التي تشق طريقها في هذا الممر المائي، الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، تضفي على اللوحة الفنية للبوسفور جمالًا لا يضاهيه أي جمال آخر!! إنها منحة ربانية وهبها الخالق عز وجل لبني آدم كي يتذكروا قدرة الله على الخلق والإبداع.

أكاد أجزم بأن ساكني هذه المنطقة الساحرة يتمتعون بصفاء النفس وراحة البال.. فمن أين لهم بالضغينة والحقد وسط هذا البهاء والنقاء الطاغي؟!! أعترف بأن ألوان وروائح البوسفور ما زالت تسيطر على جزء كبير من نفسي.. لذا فقد حفظتها جيدًا في دولاب الذكريات كي تكون ملاذًا لي في لحظات الضيق والكرب.

***

الباب السادس
بورصة.. عاصمة العثمانيين الأولى

في منأى عن صخب الحياة.. بعيدًا عن شمس الشتاء ودفء الضياء.. هنا في أعلى مرتفعات «أولو داغ» بمدينة بورصة التركية.. أمضيت ساعات لا تنسى بحضن الأبيض الذي يلف الأرض والسماء.. ساعات تحيا في الأبد.. تصفو النفس فيها وترتقي الأحاسيس.

سحب داكنة معبأة بالمياه.. أبراج كهرباء تناطح الأفق.. جبال يكسوها الأبيض.. أشجار فارعة خالية من أوراقها يتناثر عليها الثلج وكأنه قطع اللؤلؤ البرّاق المضيء.. أعمال نحتية بديعة صاغتها أنامل الطبيعة في هذا الفضاء النقي الواسع.

الأرض هنا في أبهى مفاتنها.. أنظر إلى الأشجار فأحسبها عرائس

ترتـدي ثوب النقاء.. يهطـل الثلج من عليائه ويفيـض بالخير.. فليته دام واغتسلت به القلوب العليلة!

الأبيـض الناصـع والهـدوء الطاغـي يجعلـك تفيـض بالخواطـر والشعر.. بل إنه قد يلهمك أبياتًا وكلمات لم يأت بها الشعر العربي من قبل. كنت أشدو فرحًا بهذا العرس، وكأن سهول الأرض وجبالها قد بدَّلـت لونها واختارت لونًا يبعث الأمل. أعترف بأنني لا أجيد كتابة الشعر أو نظم القوافي، لكنني أمام جلال مشهد التلال البيضاء، كدت أحاكي أمير الشعراء شوقي والأخطل الصغير في وصفهما للحبيبة.

***

انطلقنـا مـن مدينة «إسكيسـا» في إسـطنبول عـن طريق العبَّـارة التي نستقلها لمدة نصف ساعة، ثم استبدلنا بها السيارة في رحلة تستغرق ثلاث سـاعات بالتمام والكمال إلى بورصة.. كـم قتلني الفضول لرؤية العاصمة الأولى للعثمانيـين التي أسسـها السـلطان أورهان غازي عـام 1326م.. والتي تعد اليوم خامس أكبر محافظات تركيا.. كنت أتعجل مرور الدقائق والساعات وكأنني على موعد مع حبيب لم أره منذ زمن بعيد.

مازالت الأمواج تحملنا على سطح الأزرق في رفقة طيور النورس الصديقة.. والسـفينة تشـق البحر سريعًا في سلاسة ويسر.. اعتزلت النـاس، وتبـوَّأت أعلى مـكان بالسـفينة وأنا أتخيل جيوش المسـلمين العظيمـة عنـد ذهابهـا لفتح بورصـة.. كم كانـت أيام عـز ومجد!!.. تدافعـت إلى الذاكرة في هذه اللحظـة أيضًا صور فتوحات الأندلس،

ومصر، والقسطنطينية.. لكنني أفقت فجأة على صوت يأتي من الطابق السفلي للسفينة لأحد المرشدين السياحيين يتحدث العربية بطلاقة. راح يحكي للوفد الذي يرافقه الكثير من المعلومات عن بورصة، مؤكدًا لهم أنها تقع تمامًا في موضع «عمورية» التي شهدت الواقعة الشهيرة للخليفة المعتصم حين استغاثت به إحدى المسلمات وهي تلطم على خدها.. وتناديه: «وا معتصماه».. فحرَّك على إثرها المعتصم آنذاك جيشه لنجدتها من الروم.

فأين المعتصم اليوم ليغيث العرب من قهر حكامهم واستبداد النظم الإمبريالية الغربية؟!

وا معتصماه!!.. فهل من مجيب؟!

رست العبَّارة على الشاطئ المخصص لها.. وبدأ الركاب في النزول إلى رصيف الميناء بشكل عفوي منظم دون تدافع.. كل يعرف اتجاهه بأدب، ويحترم ترتيب الصف.

في طريقنا إلى الجبل، جابت بنا السيارة مساحات شاسعة خضراء تعرف بمنطقة «يلوا»، وهي تتميز بتربتها الخصبة جدًّا حتى إن الجبال تسهل الزراعة فوقها. بانوراما من الألوان الزاهية تشكِّلها الطبيعة، وتتشارك فيها أشجار التوت والتفاح والليمون بألوانها البديعة النضرة.. وهو ما يفسر انتشار أعداد كبيرة من سيارات النقل والشاحنات على الطريق السريع محملة بخير الأرض، تتوجه يوميًّا إلى إسطنبول.

سيمفونية أخرى من الألوان المتناسقة الرائعة تنطق بها زهور بورصة التي تحظى بشهرة عالمية، ويتم تصدير كميات كبيرة منها إلى أوروبا، خاصة في أوقات الاحتفالات بالكريسماس وأعياد رأس السنة. أمام سفوحها الخضراء وأرضها الطيبة، تذكرت الشاعر الفرنسي هنري رينيه الذي وصف بورصة بأنها «مدينة ربانية». حقًّا هي عطيّة الرب للإنسان!!

طوال الطريق، مرورًا بمنطقة «يلوا»، استوقفتني بنايات سكنية حديثة لا تتوافق مع المنطقة القديمة التي تقع عليها!.. أخبرني سائق السيارة أن الزلزال ضرب المنطقة بشدة في عام 2000م وهو ما تسبب في تصدع الكثير من المنازل وهدم بعضها.. دعا ذلك الحكومة إلى بناء وحدات سكنية جديدة، على أن يتم تهجير السكان لمدة عام واحد فقط ليسكنوا بمساكن الإيواء الخاصة بالبلدية.. خلال هذا العام يتم تشييد أبراج سكنية شاهقة، يكون لصاحب الأرض الحق في امتلاك نصف العمارة السكنية الجديدة، وللبلدية الحق في امتلاك نصفها الآخر، والذي غالبًا ما ستمنحه بأسعار رخيصة للمحتاجين.

هذه هي حقًّا الاشتراكية التي تدركها الحكومات الواعية حتى وإن كانت حكومات رأسمالية أو علمانية.. لا يهم التصنيف!! المهم أن تتشارك الشعوب في ثروات وخيرات بلادها.. وأن تتقاسم الحق في الحياة بكرامة.

***

هأنـذا أمـام الهـدف المنشـود «جبـل أولـو داغ».. الجبـل الحلم.. تكسـوه غابات مسـحورة كتلك التـي قرأنا عنهـا ودخلناها في زمن الـبراءة والطفولـة.. هـو أهم مركـز للرياضـات الشـتوية في تركيا.. عادة ما يأتي هواة التزحلق على الجليد إلى هنا في الشهور التي تقع بين ديسمبر ومايو.

المحـلات والبـازار في محطـة التلفريـك (البـاص الهوائـي) مليئة بالهدايا التذكارية والصناعات الخشبية المصممة بحرفية وإتقان شديد من أجود أنواع الخشب المتوافر في الغابات.

اسـتقللت التلفريـك، وبـدأت رحلة الصعـود بعيدًا عن سـطح الأرض.. كلـما ارتفعنـا زادت المسـاحة البيضاء.. الأشـجارُ راكضةٌ خلفي.. كم كان مدهشًـا جدًّا شـكل أشـجار أبو فـرو الحمراء وهي تتخفى تمامًا في ثوب أبيض شتوي جميل.

مـا إن وصلنـا إلى القمة بعد ربع السـاعة، حتـى فوجئت باختفاء جميع من كانوا معي برحلة التلفريك من ركاب!! كل شيء من حولي اختفـى خلـف ضباب كثيـف يحجب الرؤيـة!!.. تصغي عـلى البعد القريب إلى صدى أقدام.. لكنك لا ترى شيئًا مطلقًا.. أخيرًا وجدت أصدقائـي، وأخذنـا نلعب بكـرات الثلج ونتبادل قذفهـا على بعضنا البعض وسط جو من المرح، وصوت ضحكاتنا يكسر فراغ الدرب.

لم أكن أرتدي حذاءً مناسبًا للطرق المغطاة بالثلوج، وهو ما تطلب منِّـي المحافظـة، قدر المسـتطاع، على توازني أثناء السـير بين التواءات

الدروب.. متعة ومشقّة في آن واحد عملية الصمود أمام مداعبات الجليد.. لكن هيهات.. باءت كل المحاولات بالفشل. لم ينج أحد منا من السقوط في هذا الكون الأبيض النقي. ما أجمل البرد عندما تهطل الثلوج!

برودة الطقس أشعرتنا بالجوع.. وكانت رائحة المشويات على الفحم تتصاعد من مداخن المطاعم.. كدت أتجمد من شدة الحاجة إلى الدفء والطعام. توجهنا إلى أقرب مطعم «أبو شنب»، الذي سمي كذلك نسبة إلى صاحبه السيد جمال بشاربه الكبير يملأ وجهه. لقد أضفى الزمن على ملامح وقسمات وجه هذا الشيخ العجوز الكثير من التفاصيل التي تحمل في طياتها الجد والاجتهاد والقناعة.. كانت عيناه تلمعان ويملؤهما بريق القوة والإرادة.. تعايش بحب وصبر مع هذه الطبيعة القاسية ولم يرض عنها بديلًا.

كنت أحتسي الشوربة الساخنة وأتابع من خلف زجاج النافذة بإعجاب شديد كل ما يقوم به هذا الرجل العجوز من أعمال. كان يشرف بنفسه على كل شيء تطلبه إدارة المطعم، من إعداد الطعام، وتدفئة المكان.. يتشارك مع العمال في إزاحة الثلوج من أمام الباب ليمهد ممرًا للعبور أمام الزبائن.. ولا يمنعه كبر سِنِّه من المشاركة أيضًا في توفير الحطب ونقله إلى المدفأة.. يصاحبه في كل المهام كلبه الوفي الذي يؤنس وحدته ويقاسمه الحياة هنا، خاصة أن أسرته تفضل العيش بالمدينة، ولا تأتي للإقامة معه إلَّا في فصل الصيف فقط.

عاش شيخنا فوق هذا الجبل لأكثر من خمسين سنة، لم يغادره سوى 12 مرة فقط للسفر إلى الحج والعمرة. وفي حديثه معنا، لم يخف إعجابه بمصر المحروسة ورغبته الملحّة في زيارتها يومًا ما.

الوقت الحلو يمر سريعًا، ووعاء الحاج جمال لا ينضب من الذكريات والطرائف.. فرجل بعمره له الكثير من التجارب والحكايات.. إلّا أن الوقت كان يداهمنا وعلينا أن نلحق بآخر موعد للتلفريك حتى لا نقضي ليلتنا هنا وسط الجليد.

قمنا بتوديعه على أمل بلقاء جديد.. وتحركنا على الفور للمحطة وسط أغنية بيضاء عميقة الأصداء.. ظلت الثلوج تنهمر.. وتتطاير كراتها من حولنا.. فتمسح عبر الدرب آثارنا وتطمر أسرارنا.. كم كان يومًا جميلًا لا ينسى من الذاكرة!

***

يأخذني الحنين والشوق إلى مكان آخر أسطوري أكثر جمالًا يوجد بالقرب من هنا.. بسبب الشتاء قارس البرودة بدا مهجورًا.. لكنه بالصيف يعج ببحر من البشر.. كانت الزيارة إلى «الشجرة».. هذا الكائن العملاق الذي تشعر معه بأنك تسللت إلى فيلم خيال علمي.. أو أنك وقعت في عالم مسحور له أبعاد غامضة.

كم أعشق زيارتها دائمًا في الصيف حتى أستمتع بقضاء أحلى الأوقات بصحبة الأصدقاء تحت هذه المظلة الربانية!! نجلس معًا بالمقهى الذي تغطيه بالكامل غصونها وفروعها.. والذي بفضلها اكتسب إطلالة رائعة.. فصار جزءًا لا يتجزأ من المشهد الطبيعي.

المؤرخون أطلقوا على هذه الشجرة المعمرة «الدولمة العظيمة».. وتعني كلمة «دولمة» بالتركية «المحشي».. يقولون إنها نمت وامتدت أغصانها مع توسع الدولة العثمانية من عاصمتها الأولى بورصة باتجاه بلدان العالم الأخرى. سقطت الدولة العثمانية، لكن هذه الشجرة ما زالت حيّة تمثل الروح العثمانية الخالدة بين سكان المدينة.. فهي تعود بك إلى فضاء الزمن الأول.. زمن السلاطين.

يتراوح عرض جذعها بين مترين وثلاثة أمتار تقريبًا.. ولها فروع كبيرة، عرض كل منها بحجم شجرة مستقلة. يحكى أن عمرها -وكما هو مدون عليها- يبلغ 600 سنة. ما أحلاها شجرة.. وما أعظم خلقك يا ألله!

طوال شهور الصيف، تكتمل المتعة بتناول وجبة الغداء تحتها في الهواء الطلق.. شرط أن تقوم بنفسك بالإشراف على عملية شواء اللحم أو الدجاج، مصاحبًا له المخللات والسلطات. كلما زاد عدد الوافدين لها، انتشر تصاعد السحب الضبابية لرائحة الشواء التي تثير الجوع وتفتح الشهية. خلف سحب الدخان كل شيء يختفي تمامًا.. ولا يتجلى في الأفق سوى وجبة شهية ساخنة تنتظرك.

بمجرد الانتهاء من تناول الطعام.. وبعد مضي ساعات في أحاديث السمر والتقاط الصور التذكارية.. يمكنك القيام بجولة استكشافية قصيرة حول المكان للتعرف على أبعاده.. لكنك لن تجد هنا سوى بعض البازارات الصغيرة التي تبيع الهدايا والتحف

والمشغولات اليدوية. وعلى بعد أمتار قليلة، تبزغ من قلب الطبيعة الغناء أسوار قرية، ما زالت محافظة على تراثها القديم.. يجلس أمامها بائعو العسل والخضراوات والفاكهة.. يبحثون عن الرزق الحلال بصبر ودأب.. ابتسامتهم على وجوههم تفيض بالرضا والأمل والتسامح. نعم، التسامح.. فهي ليست سمة غريبة على بلد سكانها ينتمون إلى 9 أعراق مختلفة -غربية وشرقية- هجرت إليها في العهد العثماني، وعاشت معًا تحت راية الإسلام.. وظلت روح التسامح سائدة بين هذه الأعراق إلى يومنا هذا.

وكما قال الشاعر محمود درويش:

في السفر الحر بين الثقافات، قد يجد الباحثون عن الجوهر البشري مقاعد كافية للجميع.. لا الشرق شرق تمامًا.. ولا الغرب غرب تمامًا.. فإن الهوية مفتوحة للتعدُّد..لا قلعة أو خنادق.

أورهان غازي

ما إن ينشق الصباح عن يوم جديد في هذه المحافظة حتى تتملكك الحيرة!!فهناك العديد من الأماكن السياحية الهامة التي تستحق الزيارة؛ نظرًا لقيمتها التاريخية الكبرى، من بينها 6 أضرحة لسلاطين العثمانيين.. أهمها على الإطلاق هو زيارة الجامع الأخضر والضريح الأخضر.. لم يكن ممكنًا أن أجيء إلى هنا دون قراءة الفاتحة على قبر السلطان أورهان غازي.

رغم الموت الذي لا يخلف موعده مع أحد، كنت اليوم على موعد

مع سلطان المسلمين أورهان غازي. يأتي إليه الناس من كل حدب وصوب -علىٰ اختلاف جنسياتهم وألوانهم- ليتطلعوا إلى نموذج عظيم يقتدون به.. ويترحموا على رجل خالد.. هبَّ لنصرة الحق في عالم الظلم والباطل.

اجتزت عتبة الضريح، فإذا بقشعريرة تسري في جسدي من رهبة اللحظة!! فأنا أمام قبر واحد من أهم سلاطين المسلمين الذين سجلوا تاريخهم بحروف من ذهب.. أقف بخشوع وكأنه يسمعني ويدرك ما يدور بعقلي!

أيها البعيد كمنارة.. هالة من النور تحيط بقبرك!! وأنت من حرصت على تحقيق بشارة الرسول ﷺ في فتح القسطنطينية.. ووضع خطة استراتيجية تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد!!.. حققت الحلم بعد أن قمت بتأسيس جيش الإنكشارية الذي ساعد الدولة العثمانية في استمرار فتوحاتها لـ 200 عام.

كثير من المعلومات عنه مدونة على لوحة رخامية باللغتين التركية والإنجليزية.. من بين هذه المعلومات: قصة فتحه لمدينة بورصة حيث حاصر القلاع المحيطة بها، وظل محاصرًا لها قرابة عشر سنوات. ولما تأكد حاكمها أنها أصبحت في قبضة «غازي»، سلَّمها له، فدخلها دون قتال سنة (726هـ 1325م)، بدون أن يتعرض لأهلها بسوء، وهو ما جعل حاكمها يعلن إسلامه.

بعد الفتح، اختار السلطان العظيم بورصة لتصبح أول عاصمة للدولة العثمانية.. وخلال فترة حكمه -التي دامت خمسة وثلاثين عامًا- تمكن من انتزاع «أزمير»، و«أنقرة»، و«قره سي»، و«برجمة»، ثم حاصر سمندرة وإيدوس واستولى عليهما.

أشاد بإنجازاته الرحَّالة المعروف «ابن بطوطة».. وعندما زار بلاد الأناضول -في فترة حكم السلطان أورهان- التقى به.. وقال عنه: إنه أكبر ملوك التركمان، وأكثرهم مالًا وبلادًا وعسكرًا.. وإن له من الحصون ما يقارب مائة حصن، يتفقدها ويقيم بكل حصن أيامًا لإصلاح شئونه.

رحم الله أجدادنا.. وكل من عمل على نشر كلمة الحق في الأرض، وإعلاء دولة العدل ودولة العلم.. فقد اهتم أيضًا السلطان غازي ببناء المساجد، وأنشأ المعاهد العلمية.. وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين الذين كانوا يحظون آنذاك بقدر كبير من الاحترام في الدولة. في عهده، كانت كل قرية بها كلياتها التي تدرس النحو، واللغات، والمنطق، والميتافيزيقا، وغيرها من علوم الدنيا والدين.

رحم الله الصالحين وأسكنهم فسيح جناته.. رجال صدقوا ما وعاهدوا الله عليه.

لمست بنفسي عشق سكان المدينة لتاريخ سلاطين دولتهم.. وتحسست في البسطاء الفخر بأعمالهم وانتصاراتهم مما جعلهم يحفظونها في قلوبهم، قبل حفظها بالكتب والمراجع.. بل إنهم

يعتبرونهم رمزًا لوجودهم وبقائهم.. فاجأني -ذات مرة- أحد الباعة بالأسواق بمعلومة عن السلطان «عثمان غازي» مفادها أنه قام بسك أولى مسكوكات أولاد عثمان. كانت هذه العملة مصنوعة من الفضة، وتحمل عليها اسـمه ودعاء قصيرًا مثل عبارة: «خُلد ملكه» أي (دام ملكه)، وعبارة «عزَّ نصره».

مـن الظلم أن نسرد تاريخ السـلاطين في سـطور معـدودة!! فهو يحتاج إلى مجلدات تحكي أمجادهم وتنقل انتصاراتهم لأجيال لا تعرف عن دولة السـلاطين شيئًا سوى ما تنقله لهم الدراما والسينما، والذي غالبًا ما تعتريه معلومات خاطئة ومشوهة بحق هؤلاء الخالدين.

أعاننا الله على تتبع درب الصالحين منهم.. وهم كثر.

***

تحافظ على طبيعتها الساحرة.. تستفيد مما تجود به أراضيها من ثروات ظاهرها وباطنها.. تمتلك موروثًا ثقافيًا ضخمًا تركه الأجداد العثمانيون.. للمسـيحي هنا أيضًا نصيب من السياحة الدينية.. يجده في منطقة بحيرة إزنيك بشمال شرق بورصة التي هي مرتع للجمال الطبيعي.

مع الأسـف، لم يكـن معي فائض مـن الوقت لزيارة هـذه البقعة الساحرة.. صدق الشاعر أدونيس عندما قال:

كلُّ طريقي سفَرٌ دائِمٌ

وفي المجاهيل مواعيدي

ربـما لم يكتب لي موعـد معها حتى هذه اللحظـة.. إلَّا أنني عزمت النيّة

لزيارتها في أقرب فرصة ممكنة.. أسرتني بالقصص التي تحكي عنها وهي التي كانت مركزًا استيطانيًا هامًّا في العهدين الروماني والبيزنطي.. وعلى أرضها تم إبداع النماذج الرائعة لفن الخزف عالميًّا على يد الفنانين العثمانيين.. أنا على يقين بأنها تستحق زيارة خاصة لمحافظة بورصة ذات مرة.

***

الحنين إلى الضوء كان يلازمني في رحلتي الشتوية حيث تغيب الشمس معظم ساعات النهار.. وهناك أيام كاملة كانت لا تطل فيها مطلقًا.. على عكس مصر التي تتمتع بدفء هذا القرص الذهبي طوال أيام الشتاء!

ما إن تذكرت شتاءها الدافئ حتى اشتقت لبلادي!! دائمًا مصر في خاطري، تتوارى بحكم البعد الجغرافي، لكنها سريعًا ما تتجلى في التفاصيل.. فقررت أن أذهب إلى سوق الحرير «كوز خان» وهو يشبه إلى حدٍّ كبير خان الخليلي.. تتجلى القاهرة العامرة في تصميمات الدكاكين ذات الأبواب الخشبية، وحاراته الضيقة، ومنتجاته التي يعرضها للبيع.

سوق قديم وجميل.. تتنسم فيه عبير الماضي الأصيل وعبق الزمان.. يشتهر بأروقته الزاخرة بمحلات الإيشاربات والحجاب بجميع أشكاله، والحرير، والمناشف، والمفروشات... الأسعار هنا أرخص بكثير من إسطنبول. عادة ما تأتي إليه الفتيات لاقتناء مفروشاتهن قبل العرس. وبعد البحث والتنقيب.. وصولات وجولات البيع والشراء.. يكفي أن تجلس على إحدى الكافيتريات لتتناول وجبة

ساخنة، يا حبذا لو تذوقت أطباق الـ «إسكندر كباب»، وحلويات «كمال باشا» اللذيذة جدًّا.. ما إن تحتسي فنجان القهوة التركي بعد وجبة الغداء، حتى يذوب تعب اليوم كله في الفنجان.

عربات أبو فرو الساخن تنتشر على نطاق واسع في الشوارع، شأن عربات البطاطا الساخنة في القاهرة.. إلى جانب شهرة بورصة بالحرير وصناعة السيارات، فهي تتميز بزراعة أشجار أبو فرو «الكيستاني».. والذي يتم معالجته بطريقة معينة، ثم يحلَّى بالسكر أو بالشيكولاتة.. ويعرف باسم المارون جلاسيه.. يباع الكيلو الواحد منه في مصر بـ 900 جنيه، لكن نظرًا لوفرته هنا، لا يتعدى سعر الكيلو الواحد 150 جنيهًا فقط. دائمًا ما أحرص على اقتناء علب المارون جلاسيه كهدايا قيمة للأهل والأحباب في مصر.

وسط الأسواق -التي هي نزهة السائح كل مساء- يمر الوقت سريعًا.. بعد أن أنتهي من زيارة الأماكن التاريخية والسياحية طوال النهار، أضيع في شوارعها وأزقتها.. لا حاجة لي بخرائط أو بوصلة.. أسلم نفسي للدروب وأنسى معها الزمن.

أمسي غَدٌ والكونُ ترتيلةٌ

تذوبُ، في وجهي وحبّي تذوبْ ؛

يولد في عينيَّ معنى الضحى

تبدأ من نفسي كلُّ الدروبْ

***

الباب السابع
كبــادوكيــا.. أرض الجيــاد البيضــاء

ما غـاب عن عيني خيالها للحظة!!.. صورها بالكتب والمجلات السـياحية تسرق الفؤاد والألباب.. بـات لقائي بها في المنام متكررًا.. فأقسمت أن أكون على موعد معها عند زيارتي لتركيا.

داخـل وخـارج الزمان تقع هذه المدينة السـاحرة.. فهـي نتاج ما تفننـت به الطبيعة الأم من تحويل أرضها إلى قطعة فنية يعجز أي فنان عن تخيلها.. إنها «كبادوكيا» القلب النابض للأناضول الوسطى.

لم يكـن من الصعـب الوصول إليها، فجميع وسـائل المواصلات متاحـة، سـواء بالطائـرة أو بالحافلة. فهي تقع على بُعـد 400 كم من العاصمة أنقرة، و450كم تقريبًا من مدينة أضنة الشـهيرة. استقللت السـيارة من أنقرة العاصمة في رحلة لم تستغرق سوى ثلاث ساعات

تقريبًا. تعمدت أن أذهب بالسـيارة بعد أن عرفت بوجود العديد من البحـيرات المالحة في الطريق بين المحافظتـين. تعمدت أن أرى بعيني هذه البحيرات التي يأتي إليها الناس خصيصًا للاستشفاء من أمراض معينة مثل روماتيزم المفاصل، وآلام القدم...

كـم كان رائعًـا مشـهد الشـمس وهـي ترافقنـا طـوال رحلتنا!! تداعب أعيننا بأشعتها الدافئة.. تتوارى مرات ومرات خلف أشجار المشـمش والتفـاح.. وتظهر ثانيـة.. ظلَّت في رفقتنا حتـى وصلنا إلى المكان المنشـود. كانت سيارات كثيرة تصطف أمام البحيرات. لم أكن أتخيل وفود هذه الأعـداد الكبيرة من البشر -مع اختلاف أعمارهم- إلى هنـا!! الكل يخلع حذاءه ويغمر سـاقيه في البحـيرة البيضاء باحثًا عن الشـفاء والراحـة.. كانت كتل الملح في القاع مدببـة ومؤلمة جدًّا، أقـرب لملمس الصخور في البحر، لكـن قيمتها العلاجية كانت كافية حتى يتحمل الناس آلامها.

عـالم يمـوج بالبـشر.. أفـرادًا وجماعـات.. يقضون ربع السـاعة أو نصفها في البحيرة، ويخرجون للجلوس على أي من المقاهي التي تطل على ضفافها لالتقاط الأنفاس.. منهم من يتناول الشـاي والحلوى.. منهم من يفضل شرب الأرجيلة.. وعادة ما تفضل الفتيات والنسـاء التجول بالمحلات القريبة وتفقد بضائعها من إيشـاربات، وحقائب، وهدايا تذكارية، بالإضافة إلى المسـتحضرات الطبية وكريمات البشرة التي صنعت خصيصًا من ملح هذه البحيرات.

مهما اختلفت الأرض أو اللغة، تتشارك نساء العالم في سمات واحدة، وهي متعة التسوق والبحث عن التألق والجمال.

كان علينا أن نواصل مسيرتنا قبل غروب الشمس إلى كبادوكيا التي تعني بالفارسية «أرض الجياد البيضاء».

***

تأسرك للوهلة الأولى بجمالها المختلف.. عالم خيالي يأخذك في رحلة بعيدة إلى النجوم.. إطلالة بانورامية رائعة على قمم بركانية ووديان.. أشكال مخروطية مدهشة تكونت فيها بفضل طبيعتها الجغرافية النادرة منذ آلاف السنين، أثر غبار بركاني غلف بمواد بازلتية بفعل انجراف التربة والرياح والفيضانات.

هنا اتحدت عبقرية الطبيعة مع إبداع البشر، لتخرج إلى النور مدينة مخروطية كاملة من الرمال البركانية.. فتبهر كل من ينظر إليها.. كأنها أوتار في آلة هارب.. تتمايل في نعومة.. وتدخل نغماتها اللونية إلى غرفة بصيرتك - في يسر - لتصادقها.

ولكي أعيش التجربة بصدق، قررت الإقامة في أحد فنادقها المشيَّدة داخل الجبال والتي بدا مظهرها بدائيًا وأقرب ما يكون لشكل الكهوف، بما يعكس روح وعبقرية المحيط الساحر من حولي.. لكنها من الداخل مجهزة على أحدث مستوى من الأثاث والمفروشات التي تضمن للسائح الإقامة المريحة. كان اختياري للسكن موفقًا حيث استمتعت طوال فترة إقامتي بأجواء الضيافة التقليدية الأصيلة..

وتناولت في وجبات الإفطار والغداء والعشـاء الأطباق المحلية التي هي جزء من التراث الثقافي والتاريخي لكبادوكيا.

***

في صباح اليوم التالي من وصولي إليها، كانت أشعة الشمس تشق طريقهـا بين الهضاب والتلال لتحول عتمـة الليل إلى صباح جديد.. لحظة لا تنسى بالنسبة لي.. وقفت وجهًا لوجه مع واحدة من عجائب الطبيعة التي تبرز قدرة الخالق وعظيم صنعه.. وتكشف عن جزء غال من تركيا.. يحمل هوية وطن شـهد ميلاد تاريخ وحضارات عريقة.. وهو ما جاء بترتيبها الثالث -بعد إسطنبول وأنطاليا- كمدينة جذب سياحي هامة.

أهز غصن الزمان.. لتسقط أوراق الماضي والحاضر.. فتكشف عن أرض عاش عليها الحيثيون منذ 200 سـنة قبل ميلاد السـيد المسيح. قـام سـكانها الأوائل -منذ آلاف السـنين- باسـتغلال نتـاج الطبيعة لصالحهـم؛ حيـث قامـوا بالحفـر داخل هـذه الأشـكال المخروطية، وشـيدوا منازلهم وأسـواقهم.. منها ما هو داخل الجبال، ومنها ما هو تحت الأرض لمئات الأمتار تحت السـطح!! عـاش الأجداد في بيوت داخـل الجبـال تتكون من مطبخ وحمام بدائي جـدًّا، وحجرات للنوم والمعيشـة، وأخرى تسـتغل كمخازن للغلال. وبعض البيوت ملحق بها حجرات خاصة للماشية والطيور.. جميعها داخل الصخور.

لا شـك أن كلًّا من بركاني «حسـن داغـي» و«أرجيس داغي» قد

ساهما -نتيجة لنشاطهما في المراحل الجيولوجية الأولى- في تشكيل هذه المنطقة، فهما يعدان أكبر بركانين خامدين حاليًّا في منطقة الأناضول الوسطى.

بعد القرن الثاني، وفد إلى كبادوكيا جموع من المسيحيين المضطهدين فرارًا من ظلم الرومان لهم. وشيَّدوا كنائسهم داخل هذه الكهوف لإقامة الصلاة فيها واستمرت حياتهم داخلها.. إلى أن جاء المسلمون في نهاية القرن الثاني عشر.

أخبرني المرشد السياحي التركي «إركن»، والذي رافقني في رحلتي هنا، أنه مع قدوم المسلمين تحولت هذه الكهوف إلى بيوت لتربية الحمام والاستفادة من بيع سمادها الذي يعطي أجود أنواع المحاصيل. بل إن من المفارقات الطريفة، أنه في القرن الخامس عشر كان يقاس ثراء الفرد بقدر ما يمتلكه من حمام.

هناك، أعلى قمم الجبال، توجد قلعة «أوتش هيسار».. نصحني «إركن» بالصعود إليها كي أمتع نظري بمشهد آخر له جلاله.. فهو لم يكن مرشدًا سياحيًّا فحسب، وإنما هو أيضًا ابن هذه الأرض التي يعرف خباياها ويمتلك مفاتيح أسرارها. خيرًا فعلت باتباع نصيحته.. فمن هذا المكان المرتفع عن الأرض، يمكنك أن تشاهد بوضوح لوحة فنية راقية بألوانها الساخنة وقت غروب الشمس لوادي الحمام.

ابتهالات وتراتيل سلام تنتشر في السماء.. موسيقاها تأتي من

هـذا الوادي الكبير الذي يكتسـب مظهرًا خلابًا بفضل تدرج ألوان الجبال.. الأحمر والوردي والبني والرمادي والأصفر.. ألوان خلفتها عوامل التعرية الطبيعية لقرون عديدة.

المجد لك كبادوكيا.. المجد لك يا موطن السلام.

الطبيعة طائر حط على غصن القلوب

وكأن الطبيعـة الوديعـة طائر حط على غصن القلوب.. سـاعات تقضيهـا دون ملـل في تأمـل مشـهد البيـوت والفنـادق المحفورة في جبال طينية شـكلتها الرياح، بين صعود ونزول. ناهيك عن تفاصيل البيوت السـكنية من جدران وأثاث ومفروشـات ونوافذ وأبواب.. جميعها موغلة في القدم إلى حد أنك تشـعر وكأنك تعيش حياة إنسـان الكهف.

مـا زال الحمام يرمز للسـلام.. لكنه على هـذه الأرض هو حارس الجنـة ورسـول السـماء.. كانت أعـداد كبيرة منـه تحلق فـوق «مدفأة الحوريـات» أو «مداخـن الجـن».. أنهض من قاع الأسـاطير.. أمشي على مهل.. وعيني تفك شـفرة الحجارة وتقرأ الرسـائل التي خلفتها الريـاح والبراكـين.. أعجب لهـذه التكوينـات الصخريـة وأعمدتها المغطـاة بصخـور عـلى هيئـة قبعـة.. جعلتها تأخـذ هيئـة «المشروم» أو عيش الغراب.

وعن سر تسميتها بـ «مدفأة الحوريات» سألت المرشد السياحي.. فأجابنـي ضاحـكًا وقـد بـدا عليه عـدم اقتناعـه بما ينسـج حولها من

قصص، قائلًا: إن سكان هذه المنطقة يعتقدون بأن الحوريات جئن إليها ووضعن عليها القبعات البازيلتية أعلى الأعمدة الصخرية. رغم المبالغة في القصة وما يشوبها من خرافة يرفض تصديقها العقل، غير أنك مجبر في هذا المكان الخيالي أن تعتقد في أي شيء تسمعه.. فهو مكان خارق لا مثيل له على الأرض.. ولا تستبعد أن يمر عليه أي من الشخصيات الخيالية أو تعيش فيه الكائنات الخرافية التي كنا نقرأ عنها في طفولتنا!!

لا تحصى أعداد الأعمدة الترابية التي تكونت في هذه المنطقة. غير أن أشهر تكوين فيها هو الشكل الذي يحوي ثلاث قبعات من أعلى. وبه من أسفل كنيسة القديس سيمون ذات الطابقين.. وعلى اليسار منه يوجد دير «عنب الباشا»، وهو يضم كنيسة صغيرة.. ومطبخًا.. وصالة للنوم.. وحجرات كانت تستخدم كسجون في الزمن الغابر. غير أن أشجار العنب تنتشر من حولي بكثافة، فتعطي المكان هرمونية بديعة وتناسقًا فريدًا لاتحاد اللونين الأخضر والأصفر معًا.

للحظة تذكرت وأنا أسير وسط هذه الكتل الصخرية التي تشبه نبات عيش الغراب- قصة «عقلة الأصبع» التي درسناها في الابتدائية وكنا نطالع فيها مغامرات هذا الكائن الصغير جدًّا ونرى العالم العملاق بعينيه. ها أنا أدخل نفس المغامرة المثيرة الرائعة!

السائحون في غاية الانبهار بالفضاء الواسع الذي تلاشت فيه كل معالم المدينة العصرية.. ولا يشغلهم سوى التقاط الصور التذكارية..

وإذا أردت أن تأخـذ لقطة مميزة جـدًّا، عليك أن تطلب من أحد أبناء هـذه البيئـة البكـر أن يصاحبـك في الصـورة.. فملامح وجـوه أهل كبادوكيا، من مزارعين أو رعاة غنم أو باعة جائلين، تحمل الكثير من علامات الجود والشهامة والرجولة.. المجتمع هنا يعمل بجد ويجتهد لكسب لقمة العيش.. رجالًا ونساء على السواء بمختلف الأعمار.

في كثير من الأحيان كنت أتوقف لشراء بعض المناديل والمشغولات اليدويـة، ليـس فقط لأنها تحمل في طياتها طابـع البلد وروح المكان.. أو لمهـارة ودقة الصناعـة.. ولكن أيضًا من أجل عيون سـيدة عجوز تبتســم في تحدٍّ للظروف الصعبـة وضيق المعيشـة.. لم تفقد إيمانها بغد أفضل.. ولم يضعف من عزيمتها تعاقب السنين.

عـلى بعد أمتـار قليلة من «مدفأة الحوريـات»، يوجد عالم آخر من الخرافة والإثارة هو «الوادي السحري». فيه يمكنك أن تطلق لعينيك العنان كي تتصور ما تشاء. هو واد مليء بالتكوينات الصخرية العجيبة التي تشبه عالم الإنسان والحيوان، منها ما يشبه الديك.. ومنها ما يشبه رأس الخرتيت.. أو قبعة بونابرت...

دنيـا زاخرة بإيقاعات منغَّمة في معزوفات نحتية تبث الحياة.. من خلالهـا تصغي إلى حديث الصخـور. مازلت أعيـش في حلم كبير.. لا أصحـو ولا أغفـو.. الشـمس تـشرق ثم تغـرب.. والظـلام يعلو ويهبط.. والحمام ما زال يرمز للسلام.

شـمس الحيثـيين

في اليـوم الرابـع لي في كبادوكيـا، كنـت على موعد مـع محطة مهمة للاسـتلهام وإحيـاء الـتراث هنـا في «كيـا سـيراميك»، وهـو مصنـع للفخار، واحد من أقدم المصانع بالمدينة. فيه تقف باحترام أمام جدار القيمـة الموروثـة، وتنهل من نهر الارتبـاط بالهوية شـكلًا ومضمونًا. فكل ما حولك من أطباق وأباريق وتحف يجسد مفردات الحياة التركية «الشرقية» بما لها من مدلولات عاطفية تم صياغتها ببراعة متناهية.

يتكون المصنع من عدة قطاعات، الأول: يضم الأفران الكهربائية، والثاني: يتم فيه رسـم وتلويـن الصناعات الفخاريـة، والثالث: يعد معرضًا لبيع المنتجات الفخارية.

جميع العاملين بالمصنع ـ وعددهم ثلاثون رجلًا وامرأة ـ يسيرون عـلى درب القدمـاء بمسـتوى لافت للنظر، مسـتلهمين مـن التاريخ العريق للحيثيين في طرق تشكيل الطين ورسمه وتلوينه. بل إن هناك بعض أشكال الفازات التي يتقنون صناعتها بمهارة الأجداد تمامًا.

من خلال حديثي مع «أورهان» المتحدث الرسمي باسم المصنع، وهو شاب وسيم يجيد الإنجليزية والفرنسية اللتين تمكنانه من مقابلة السـائحين الأجانـب والتحدث معهـم، عرفت أن القطعـة الواحدة يقـوم بصياغتهـا ثلاثة فنانين على الأقـل.. وأن صناعة الفخار في كل المدن التركية واحدة، لكنها تختلف على حسب الفنانين والمصنع الذي يقوم بإخراجها للنور.

أشهر هذه القطع على الإطلاق، والتي تلقى رواجًا جماهيريًّا كبيرًا، هي دورق «شمس الحيثيين»، وهو دائري الشكل كان يستخدم في الماضي لتخزين الخمور، أما اليوم فتستخدمه ربات البيوت لتخزين الخل والزيت بالمطابخ، أو يتم وضعه كتحفة في صالون البيوت وحجرات الضيافة.

كما يقبل الأتراك على شراء «جوز ياشيه شيشيه» لتزيين منازلهم بها، وهي زجاجة للدموع لها تاريخ بعيد حيث كانت النساء في عصر الحيثيين يضعن فيها دموع بكائهن على أزواجهن الذاهبين للحرب. على النقيض تمامًا من الإيقاع السريع الذي يطحن البشر اليوم والذي يغتال معه المشاعر الرومانسية، كان الإخلاص النادر والمشاعر الفيَّاضة من أهم سمات ناس زمان.. قل للزمان ارجع يا زمان.

وقد أخبرني أورهان أن الرسوم الهندسية على الأطباق تتنوع.. وإن كان يطغى عليها اللون الأزرق.. لكنها في مجملها تمثل الحياة العثمانية: الحرب، الصيد، الورود.

التقيت بالحاج مصطفى، وهو أكبر العاملين سنًّا. وخلال حديث خاص دار بيننا، كنت أحتسي قدحًا من الشاي بينما هو مشغول بصياغة قطعة من الطين بدأب، أخبرني أنه بدأ عمله في صناعة الفخار منذ أن كان عمره 9 سنوات فقط. وقد أمضى ستين عامًا من حياته في تشكيل الطين وصياغته.. وهو ما أكسبه مهارات كثيرة مثل الإتقان والدقة.. كما أصبحت يده قوية بفضل هذه الصناعة التي تحتاج إلى جهد كبير.

وبحزن وأسى، استرسل قائلًا: منذ 150 سنة في كبادوكيا، كان الناس يعملون هنا بصناعة الفخار وكان يشترط على الشاب المتقدم لخطبة فتاة أن يعرض على أهلها قطعتي فخار من صنع يده، وفي حال كانت مواصفات القطعتين غير مناسبة، لا يقبل الأهل زواج ابنتهم منه. أما اليوم، فلم يعد هناك من يقبل -بحب وإخلاص- على تعلم هذه الصناعة. قليل جدًّا من يجيدونها ويصيغون القطع منها بفن وإتقان.

وعندما سألت الشيخ الكبير عن المهنة التي كان يرغب العمل بها لو عاد به الزمان للوراء، فأجابني ضاحكًا: كنت أحب أن أكون لاعب كرة قدم، لأنها تجلب أموالًا أكثر بكثير من العمل بصناعة الفخار.

استغرقت جولتي بالمصنع ساعات دون أن أشعر بالملل.. خاصة تلك التي قضيتها في تفقد منتجات المصنع والتي تطرح للبيع في معرض ملحق بالمكان.. فشلت في مقاومة شراء بعض القطع كهدايا تذكارية للأهل والأصحاب في مصر.. فكل شيء هنا يسلب العقل من فرط الإتقان والإبداع.. وحدات زخرفية تتغنى بتكوينات باهرة وأداء لوني متميز.. تتناقلها الأجيال من جيل إلى آخر. ليظل الفخار هو الحاضر في كل زمان.

***

الأفق يشرب من نبيذ الشمس.. يغطس في الضباب.. ضوء آخر

موعد لهذا اليوم كان على ضفاف «النهر الأحمر». هذا النهر الذي عاش إلى جواره الحيثيون في الماضي، وشيَّدوا حضارتهم العظيمة. يعد من أطول الأنهار في تركيا حيث يبلغ طوله 165 كيلومترًا وقد اكتسب لونه الأحمر من الطمي الذي يسقط فيه بفضل الأمطار ليمنحه لونًا ورديًا غاية في الجمال.

يتوسط النهر جزيرة كبيرة، تنتشر عليها بعض التحف والأباريق والأواني الفخارية، لتعلن بذلك عن ارتباطها الوثيق بالنهر الأم الذي استخرجت منه.. فمعظم مصانع الفخار في كبادوكيا تعتمد على الطين الأحمر الذي تستخرجه من «النهر الأحمر».

تلمح في عيون المارة على جسر النهر نظرة حب وتقدير لهذا الجدول المائي الخالد الذي يمنح مدينتهم الحياة والرزق. الحدائق الخضراء بأزهارها النضرة تكسوه من الجانبين.. وهي ملاذ للباحثين عن التأمل وصفاء الذهن.. جلست على أحد مقاعده الخشبية كي أستريح من تعب يوم بأكمله قضيته في التجول.. وكانت فرصة لي أيضًا كي أتأمل في الخلق من حولي.. الأطفال يمرحون ويشترون الحلوى والسميت من الباعة المتجولين.. العشاق يهيمون عشقًا أمام مياهه الوردية وكأنهم خارج نطاق الزمن.. هناك من يلتقطون إلى جواره الصور الفوتوغرافية.. بينما يفر إليه المسنون إما لممارسة رياضة المشي.. وإما لاستعادة الذكريات الجميلة مع الأصدقاء وقتل وقت الفراغ في الحديث عن الماضي.

أدركت بنفسي حسن ضيافة هذا الشعب للغريب وبشاشة الوجوه التي تجعلك تقع أسيرًا في حب هذه الأرض.. بمجرد أن تتحدث مع فرد منهم صرتما أصدقاء.. الحرية، والبساطة، واحترام الآخر جميعها مبادئ مقدسة عند الصغير والكبير.

كـوكـب القــردة

تحيط كبادوكيا أربع قرى صغيرة مشيدة بنفس الأسلوب العمراني، هي: أورجيب، أفنوس، نفشهير، جيرميه. كانت الجولة في اليوم الخامس من إقامتي إلى الأخيرة «جيرميه». وهي تشكل متحفًا طبيعيًّا مفتوحًا. كما تشتهر بأسواقها القديمة التي تباع فيها المصنوعات اليدوية التركية والتصاميم القديمة من الكليم والسجاد التركي المعروف، إلى جانب المصنوعات الجلدية و«الشامواه» من أحذية وحقائب وأحزمة.

كان متحف جيرميه «المتحف المفتوح» هو مقصدي نظرًا لأنه من أشهر متاحف المدينة التي تستقبل آلاف السائحين سنويًّا. ويعد واحدًا من مناطق التراث العالمي، كما سجلته الحكومة التركية في عام 1985م كأرض محمية طبيعية.

ما إن تطأ قدمك أرض هذا المتحف حتى تشعر بالعمق الذي يكتنفه.. الحجارة هنا تخترق أسرار المعنى وتجذبك إليها.. الكتابة على الجدران ليست إشارات صامتة أو مجرد حروف لاتينية.. إنها تتحرَّك وتَمشي بحالة داخلية سرِّية.. تروي حكايات لناس رحلوا عن عالمنا، كانوا زاهدين في هذه الدنيا وأمضوا حياتهم في التفرغ للعبادة.

كنائس عديدة عتيقة مختبئة بين صخور الجبال.. تذكرك بالأديرة المنتشرة في جبال مصر ووديانها، والتي لجأ إليها الرهبان هروبًا من بطش الرومان. عادة ما يتردد على زيارتها المسيحيون في الأعياد الدينية. غير أن الكنيسة السوداء وكنيسة التفاحة هما الأجمل في التصميم البنائي والنقوشات الجدارية.

لفت انتباهي واستوقفني طويلًا بقاء الرسومات والأيقونات والألوان المبهرة على حالها. صور السيد المسيح، والسيدة مريم، والقديسين، جميعها بكامل رونقها وبهائها.. قصص كثيرة من الكتاب المقدس ترويها رسوم الجدران وأسقف الكنائس للعبرة والتذكرة.. ساعات طويلة تمضيها داخل هذا المتحف دون إحساس بالملل.

إن لم تكن الطبيعة والحضارة تكفيان لك، فهناك المزيد مما تعرضه هذه المدينة التاريخية على زوارها مثل: ركوب الخيل والجمال.. أو ممارسة رياضة المشي.. أو التجول بالدراجات الهوائية فوق السهول والهضاب قرب موعد الغروب. كذلك، يمكنك ركوب المنطاد «البالون» حيث تضم «جيرميه» أكبر محطة للبالون.

خلال ساعة ونصف الساعة مدة الرحلة التي تبدأ مع سطوع الشمس، سوف تستمتع برؤية أجزاء كبيرة من كبادوكيا.. تنقلك لعالم آخر بعيدًا عن الواقع.. وهو ما دفع منتجي أفلام «حرب النجوم» و«كوكب القردة» للجوء إلى هذا المكان الأسطوري لتصوير

مشاهد الأفلام فيه، وإقناع المشاهدين بأنه قد تم التصوير فوق سطح كوكب غريب، دون الحاجة إلى ديكورات مزيفة أو تأثيرات مضللة.

***

تمر الأيام الحلوة سريعًا وتبقى الذكريات خالدة.. كان عليَّ في بضعة أيام قليلة أن أجمع قدر المستطاع أكبر عدد من مفاتيح هذه المحافظة التاريخية.. وكنت أحيانًا أضطر لزيارة منطقتين فيها بنفس اليوم الواحد.. فالمسافات متقاربة بين المدن والقرى. صحيح أن الطريق في كبادوكيا ليس على مستوى أرضي واحد، بل على مستويات مختلفة الارتفاع والهبوط، لكنها مغامرة ساحرة وغير تقليدية على الإطلاق.. أسعدني كثيرًا أن أخوضها.

القبلة هذه المرة كانت إلى منطقة «نفشهير» لزيارة «كايماك لي». وهي مدينة تحت الأرض اتخذها الآلاف من السكان مقرًّا لإقامتهم منذ سنين طويلة. على الرغم من كثرة عدد الممرات التي تمتد على عمق 100 متر تحت الأرض، فإن السلطات التركية لاتسمح للزوار بالتجول في أكثر من أربعة طوابق فقط.

جاء تصميم هذه الطوابق بشكل هندسي مخطط له بذكاء شديد حيث ترتبط ببعضها من خلال ممرات ودهاليز مزودة جميعها بفتحات للتهوية، ومنظمة بشكل يشبه خلية النحل. كم هالني الطقس اللطيف تحت الأرض رغم أن الساعة كانت الواحدة ظهرًا وقت زيارتي لهذا المكان، وكانت الشمس الحارقة تتوسط السماء في الخارج!! عرفت

من «إركن» أن الحيثيين شـيَّدوا الطابقين الأول والثاني بها.. ثم أكمل المسـيحيون تشـييد باقـي الطوابـق. وتعد «كايـماك لي» المدينـة الثانية الكبيرة تحت سـطح الأرض بعد مدينة «ديرين كويو» التي تبعد عنها مسافة 15 كم فقط.

رغـم صغر الحجرات، فإن المسـافة بـين الطوابـق وبعضها كبيرة وذلـك بهـدف الحفـاظ على تـوازن الجبل وعدم سـقوطه. اسـتخدم الطابـق الأول كحظائر للمواشي، بينما تضـم باقي الطوابق حجرات نوم، وطعام، ومخازن للغلال. وكنائس صغيرة للعبادة.

جمع المكان بين الوحشـة والغربة لأنه صمم عكس الحياة الطبيعية التي يعيشها الإنسان المعاصر، وما يتمتع به من رفاهية فوق الأرض، وليـس تحتها.. ومن ناحية أخرى، كان يكتنف المكان جو من الدفء وروح الألفـة عندما تتخيل أن كل من عاش فيه وجد الأمن والأمان في وقـت الحـروب والغزوات. في أوقـات الخطر، كانـت تغلق جميع فتحـات الطوابق بحجـر دائري كبير، يدفع به أكثـر من رجل.. وهو ما كان يصعب على العدو اختراق هذا الجبل.

أسرار كثيرة تنطق بها الجدران من حولي لناس عاشوا هنا منذ آلاف السنين. تحتاج إلى سنين وسنين لفك شفرتها وهو ما جذب إليها كثيرًا مـن الرحالة والمغامرين ليحكوا لنا عن أنماط عمارتها، وسـحر جبالها ووديانها، وملامح معيشة سكانها.. عن كبادوكيا مدينة الأسرار.

معقل الصوفية

الليل في كبادوكيا يشبه ليالي ألف ليلة وليلة.. القمر يملأ السماء بإطلالته ويرسل ضوءه على رءوس الجبال لتشعل فوقها نارًا بيضاء.. نوره يشع لينير الطرقات المعتمة ويفتح الطريق أمام العاشقين.. معه يحلو السهر بمصاحبة الموسيقى التركية الفلكلورية التي تعبر عن الروح الأناضولية، وقد احتفظت بخصائصها الأساسية التي لازمتها منذ نشأة الأمة في سهول آسيا.

كانت مفاجأة لي في إحدى السهرات عندما انتهينا من تناول الطعام في الهواء الطلق، فإذا بالمرشد السياحي «إركن» يطلب من صاحب المطعم آلة «ساز» (وهي تشبه آلة الماندولين).. وأخذ يعزف عليها ألحانًا بديعة، ويطربنا بصوته العذب، وكأن ما بداخله من أحاسيس وهموم تنقلها أوتار الساز من الأعماق إلى الأسماع.

عرفت من صاحب المطعم أن معظم سكان الأناضول الوسطى يتقنون العزف عليها جيدًا.. وأن تاريخ هذه الآلة الموسيقية يرجع لمئات السنين. وأكد لي أيضًا أن مكانتها عند الأتراك تشبه العود عند العرب.. وعلاقة العازف بها أشبه ما تكون بعلاقة الحبيب مع معشوقته. وقد غنَّى عليها -وما زال- الموسيقيون أجمل القصائد وأرق الكلمات.

لا شك أن أحلى سهرات يمكنك أن تقضيها هي تلك.. سهرات كبادوكيا.

مثلـما تتجـلى أسرار بقـاء وخلـود كبادوكيـا في شـموخ جبالهـا.. كذلك، فإن الكثير منها مدفون في الرمال تحت الأرض.

في هـذه المحافظـة الزاخـرة بـتراث حضـاري عظيـم، وفي مدينة «إسكي شهير» تحديدًا، يرقد في مثواه الأخير الشاعر الصوفي.. شاعر الحـب الإلهي يونس إمرة.. وهو مـن عاش في القرن الثالث عشر بين أبناء وطنه كدرويش وكشاعر ملحمي.

أسـعدني الحظ أن يتوافق موعد زيارتي لكبادوكيا مع إحياء ذكراه حيث يقام سنويًّا أسبوع يونس إمرة الدولي للثقافة والفنون.. يشارك في إحيائـه أسـاتذة مـن الجامعـات، وشـعراء، ومفكـرون.. ويلقـى حضورًا جماهيريًّا منقطع النظير.

القلب عند شاعرنا هو المكان الأعلى والأسمى، وهو مكان التجلي الإلهـي.. وعلى الإنسـان أن يطهِّر قلبه من كل الضغائن والشـوائب. رحت أبحر في عالمه الشعري من قصيدة إلى أخرى.. كان المشاركون يلقونها بولع وحب كبير على أسـماعنا.. كان القاسـم المشـترك في كل القصائد هو نقاء النفس وسـمو الروح.. على سبيل المثال، عبَّر يونس إمـرة عن عالمه الروحاني بأنه ديـار مليئة برياض الرياحين والورود.. وفي إحدى قصائده، شـبَّه الشـاعر نفسه بوردة تحترق طوال العام من أجل رفعة شأن الحب.. إيمانًا منه بالعشق:

إن وردة العشق تنمو...

وأنا في أتون نار العشق أتقد

كلما زاد احتراقي

تفوح شذى

ولن أذبل أبدًا

وفي الوقـت الـذي يصور إمرة «أهـل النار والهواء» بأنهم سـفكة للدمـاء ودعـاة للحـرب والدمار، نـراه يمتدح «أهل الـتراب والماء» لكونهم يحملون صفات الصبر والتوكل على الله والسـخاء والكرم.. بـل إنه دعا الدراويش إلى التحلي بهذه الصفات، وبدأ بنفسـه ودعاها إلى التمرغ بالتراب، قائلًا:

يونس أيها المسكين

لا تتكبر على الواصلين

وكن ترابًا

فالكل منبته من التراب

والتراب روضة لك

عاش يونس إمرة حياة الدراويش.. وكان كالشـجرة المثمرة التي يسـتفيد كل شـخص مـن ثمارهـا، باحثًـا في ذاتـه وفي هـذا العالم عن المساواة والحب والسلام والصداقة.

وداعًا شـاعرنا المعلم.. يا من كنت أميًا، لكنك شـكَّلت مدرسـة ملهمة لنا في كل كتاباتك.

***

الباب الثامن
أنطــالـيـــا.. الريفـيـيــرا الـتــركـيـــة

رقيقة كما الموجة الحانية على خد البحر.. كما النسمة الودودة في طلة الصباح.. كما تقاسيم على عود.. وعزف كمان.. وآهة ناي.. ظاهرها له عشرات الصور.. وفي عمقها آلاف الأسرار.. أطلق عليها اليونانيون في الماضي اسم «أتاليا».. وشأن الإسكندرية في مصر، فإن الأتراك يعتبرونها «عروس البحر المتوسط».

أتحدث عن مدينة «أنطاليا».. التي تحاكي شواطئها في السحر والدلال شاطئ الريفييرا بفرنسا. في عام 2007م تم منحها لقب «عاصمة السياحة التركية» بفضل شواطئها النظيفة الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بطول 600 كم، والتي تعد من أنظف وأنقى المياه في العالم. لا تستغرق رحلة الطائرة من مطار إسطنبول

إلى مطارها أكثر من ساعة زمن واحدة.. تنتقل بعدها لعالم شاعري رومانسي.

هي بقعة غالية في جنوب غرب البلاد.. تحتضنها جبال طوروس المكسوة بغابات الصنوبر.. والتي تنساب في انحناءات رشيقة نحو مياه البحر الصافية المتلألئة لتعطي في النهاية خطًّا ساحليًّا متعرجًا بألسنته الداخلة في البحر والكهوف المنعزلة تحت ظلال الغابات.

تلفت أنطاليا الأنظار إليها بشوارعها العريضة التي تكتنفها على الجانبين أشجار النخيل المتراصة في خطوط طولية متناسقة كأنها مظلة تغطي هذه الشوارع. كم هو رائع جدًّا ورق الشجر الذي يتحول لونه الأخضر إلى الذهبي بفضل أشعة الشمس والتي غالبًا ما تغمره بلونها طوال أيام السنة!! فالمناخ فيها حار جاف صيفًا دافئ ممطر شتاءً.. شأن جميع مدن البحر المتوسط.

في شوارعها تنتشر العربة الخشبية التي تجرها الخيول «الكاريتّه» أو «الحنطور».. يكفي أن تستقل واحدة منها كي تأخذك في نزهة خيالية تبعث على الراحة النفسية.. متعة لن تنساها أبدًا.. غالبًا ما يحرص السائح على القيام بجولة بها، خاصة في ليالي الصيف المقمرة.

الحنطور بكامل أناقته.. تجره الجياد في زهو.. يتبختر بدلال في الشوارع.. وتفسح له السيارات الطريق.. كلها أشياء تبث في نفسك روح الأرستقراطية، وتدفع للذاكرة صور الهوانم بالقبعات الريش وفرو الثعالب، والباشوات بالزي الكلاسيكي والطربوش.. تسللت إلى

الذاكرة خلال هذه النزهة قاهرة الثلاثينيات التي كنا نشاهدها في الأفلام القديمـة.. عايشـت رفاهيـة حياة الملـوك التـي تناولها كثير مـن الرحالة والمسـتشرقين في كتاباتهـم عـن مـصر.. إلّا أن الحلـم يتوقـف مع توقف صوت خطى الخيل.. معلنة ساعة اليقظة والعودة للواقع مرة ثانية.

***

انتهت بي جولة الحنطور.. لتبدأ رحلة جديدة سيرًا على الأقدام.. رحلة يحثني فيها الفضول -منذ اليوم الأول- إلى فك شفرة هذه المدينة التي تحمل الكثير من روح وملامح الإسكندرية.. إسـكندرية اليونانيين، والأرمن، واليهود، وغيرهم من الأجناس وقت أن كانت مدينة كوزموبوليتانية.

كان مـن الـضروري أن أتوجـه لقلـب المدينة حيـث التفاصيل.. والبحـث عـن روح المـكان والاقـتراب من سـكانه. هنـا في «ميدان الجمهوريـة» -الميـدان الرئيـسي والقلـب التجـاري النابـض لمدينـة أنطاليا- يتوسـط نصـب تذكاري لـلأب الروحي الزعيـم مصطفى أتاتـورك.. أرى في عيون المارة، سـواء أتراك أو أجانب، نظرة احترام وتقدير عظيم لهذا الرجل الذي كتب الحياة لتركيا وبعثها للحياة.

على مقربة من النصب التذكاري، تتجلى في شموخ «قلعة أنطاليا» الشـهيرة، التي يعود تاريخها إلى العهـد «البيزنطي» والإمبراطورية الرومانيـة.. مـرورًا بدولـة السـلاجقة والإمبراطوريـة العثمانيـة. لذلك، لا تندهش عندما تجد داخلها كنيسـة ومسـجدًا.. فهي ليست قلعة عادية!! وإنما جامعة للحضارات والثقافات.

لها إطلالة وهيبة تتشابه مع قلعة «قايتباي» بالإسكندرية!!.. يرتفع هذا الصرح الأبيض العريق 250 مترًا عن سطح البحر.. تحيطه أسوار عاليـة تحمي المدينة من الثلاث جهات. شـيِّد فيها العثمانيون عددًا من الفيـلات التي كانت تسـتخدم مصيفًا خاصًّا لهم في أشـهر الصيف.. وتنتهـي حدودها عنـد البوابـات الهيلينيـة القديمـة -ذات الأقواس الثلاثة- والتي تشكل هي الأخرى أحد أهم معالم المدينة.

تتخلل القلعـة طرقات ضيقة مرتفعة، بها محلات بيع المصنوعات اليدوية التقليدية والهدايـا التذكارية. ومن هذا المكان الفريد يمكنك مشـاهدة الميناء القديم للمدينة حيث تسـتقر فيه القوارب الخشـبية.. تداعبها أمواج البحر، فتتمايل وتتراقص برشاقة وسط مياهه الزرقاء.. الاسـتمتاع بالرحلات السـياحية القصـيرة متعة حقيقيـة خاصة أنها بأسعار رمزية.

كم أنت رائع يا بحر الهوى!!

كل ملامـح الحيـاة العصريـة تجدها من حولـك.. كل شيء ميسر ومتوافر.. الفنادق، المطاعم والمقاهي، المسـارح والسينمات، الحدائق العامـة بجـمال تصميماتها.. المراكـز التجارية والأسـواق تتراوح فيها الأسـعار بـين الغـالي والرخيـص، بالإضافـة إلى أن جميـع الأذواق مطروحة. وقد أخبرني أحد الباعة أنه في المناسبات وأيام المهرجانات، غالبًا ما يستضيف الميدان معارض مفتوحة في الهواء الطلق.

تعـرف أنطاليـا عالميًّا بـــ «مدينة المهرجانـات» مثل مدينـة «كان»

الفرنسية.. فهي تستضيف الكثير من مهرجانات السينما، أشهرها على الإطلاق «مهرجان البرتقالة الذهبية للأفلام».. وهناك مهرجان «البحر المتوسط الدولي الموسيقي» الذي ينظم في أكتوبر من كل عام.. كما تستضيف على أرضها في الأسبوع الأخير من أغسطس «مهرجان أنطاليا الدولي للموسيقى الشعبية والرقص».. إلى جانب تنظيم المسابقات الرياضية وسباق السيارات.

في أنطاليا لا تعتمد على طعام الفنادق التقليدي.. وإنما لابد أن تتعرف على المطبخ الخاص لهذه المحافظة. كل يوم من إقامتي بها، كنت أتردد على ميدان الجمهورية، فالمطاعم والكافيتريات فيه زاخرة بألوان الطعام الشهي التي تجعلك تحار في المفاضلة بينها، وأسعاره مناسبة جدًّا.

الاهتمام بالنظافة ركن أساسي من أركان الضيافة في مطاعم أنطاليا، وهي تتجلى في كل تفصيلة صغيرة، بدءًا من أدوات المائدة، وصولًا لبريق الأرضيات والحمامات.. كل شيء يلمع وكأنه جديد.. ناهيك عن فازات الورود بألوانها البديعة وأحواض النباتات الخضراء بكل أنواعها.. تجعلك تشعر بأن الطبيعة جاءت إليك تنشد الود.

أعجبني بشدة أطباق خاصة يقدمها مطبخ أنطاليا فقط، منها: «بياز» وهو طبق يدخل في مكوناته الطحينة، والثوم، والجوز، والحبوب المغلية.. وهناك أصناف أخرى مثل تندير كوفتي، وكباب تندير، ودوماتيس سيفيسي، وشكشوكة.. بالإضافة إلى توافر أطباق

البحر المتوسـط والتي تقدم باردة مع زيت الزيتون. وتشتهر المحافظة بوجبة خفيفة يتم إعدادها من بذور الترمس المغلية. أما محبو السمك، فثمـة ما يدفعهـم لتناول «جريدا» -المعروفة أيضًا باسـم لاجوس أو الهامـور الأبيـض المتوسـطي- فهـي الأسـماك الأكثر شـيوعًا ضمن الأطباق المحلية.

جو من الألفة والود.. لن تشعر معه بالجوع في هذه المدينة، خاصة أنهـا تقدم أصناف الطعام التي ترضي جميع الأذواق.. والتي تسـتحق أن تحكم عليها بنفسك.

***

الطبيعة بلا حدود.. المتنزهات لا حصر لها.. لكن أشـهرها متنزه «أتاتورك»، ومتنزه «كارا علي أوغلو».. وهناك الحديقة المائية الموجودة على الساحل الشرقي وبها كل أنواع الألعاب الرياضية المائية، بما فيها أدوات التزحلق على المياه. الكل من حولي والأصوات تتناثر من كل الأرجاء.. والفرح يتردد صداه في أذني.. والبسـمة ترتسـم على شفاه الأطفال وهم يلهون هنا وهناك.

أضفى هـذا الجمـال الطاغي وداعة ونضرة على وجوه السـكان. بل أفاضت فيهم سماحة وطيبة الخضرة والزهور والتنسيق الجمالي.

وكما هـو الحال في كل محافظات تركيا، النـاس هنا يصحون أيضًا مـع خيوط الفجر الأولى ليبدءوا يومهم بنشـاط وحمـاس، خاصة أن اقتصادها يعتمد -ليس فقط على السـياحة- بل كذلك على الزراعة؛

فتركيا تعتمد على 65 ٪ من الخضراوات والفاكهة من أراضي أنطاليا التي تشتهر بشكل خاص بزراعة الحمضيات، والقطن، والزهور، والزيتون وزيت الزيتون، والموز.

كانت المدينة آهلة بالسكان منذ أن قام بتأسيسها -في القرن الثاني قبل الميلاد- الملك أطاللوس الثاني، وهو أحد ملوك «برجمون»، الذي أطلق على المدينة اسم «أطاليلا» تيمنًا باسمه. أما اليوم فقد بلغ عدد سكانها مليونًا ونصف مليون نسمة، معظمهم يعملون بالسياحة والزراعة، والتجارة.

مرت على هذه الأرض حضارات كثيرة جعلت المسئولين عن السياحة التركية يجيدون استغلالها بصورة أفضل وبفكر مستنير.. فنجد مثلًا القصور التاريخية القديمة، والتي جرى ترميمها وتحويلها إلى مزارات سياحية رائعة، قد تم تحويل بعضها إلى مقاه ومطاعم راقية.. فجمعت -بذلك- الطابع الأثري القديم بأدوات السياحة العصرية.

تقترب الفنادق من الإشغال الكامل طوال العام. الكل يحب ما يعمل.. ويتقنه ويخلص فيه لصالح الوطن.. وهم جميعًا متفقون على قلب رجل واحد.. بهدف بناء مستقبل مدينتهم.

قد يكون العائق الوحيد هنا هو الجهل بمعرفة واستخدام اللغة العربية.. والاعتماد على الإنجليزية كوسيلة للتخاطب.. يعزى هذا إلى ارتفاع نسبة السائحين الغربيين خاصة من روسيا وألمانيا

مقارنة بالسـائحين العرب، الذين يفضلون إسـطنبول وبورصة -في المقـام الأول- عن أي محافظـة تركية أخرى!! أضف إلى المعوقات أنه لا يمكن اسـتبدال العملات العربية في أنطاليا، وتقبل فقط العملات الدوليـة كاليورو أو الدولار أو الليرة التركية، لكن يمكن اسـتخدام بطاقات الاعتماد وبطاقات الصراف الآلي بسـهولة. ربما يتغير الوضع مسـتقبلًا مع تدفق السـياحة العربية إليها.. فهي أرض محبة تسـتحق الاكتشاف.

إعجابي بتفوق أنطاليا في مجال «السياحة العلاجية» دفعني لتسجيل مـا تقدمـه من خدمات على مسـتوى عالمي؛ فالمدينـة أصبحت تحظى باهتـمام الباحثين عن علاجات بمعايير أوروبية ومنخفضة التكاليف نوعًا ما، خاصة في أمراض وجراحات القلب والكبد. ويعد مستشفى «جامعة البحر الأبيض المتوسـط» من أهـم المراكز الجراحية في القارة الأوروبية، وهو يعتبر ثالث مركز أوروبي في جراحات القلب وزراعة الكبد. ويلقى هذا المستشفى اعترافًا واحترامًا دوليين كبيرين لما يتوافر بـه من كوادر مؤهلة على أعلى مسـتوى داخل وخارج تركيا.. إضافة إلى المراكز العلاجية الخاصة الأخرى، والتي تقدر القدرة الاستيعابية لها بحوالي أكثر من 4 آلاف سرير لكل التخصصات الطبية.

كم أهواك يا أنطاليا!! يا موطن علاج الجسد والنفس والروح.

التاريـخ يطـل علينـــا

قبـل أن أحـدد المكان الـذي أرغـب في التوجه إليه، أقـوم بقراءة

جيدة لخريطة هذه المدينة الزاخرة بكنوز أثرية ترجع لفترات زمنية مختلفة: رومانية، وبيزنطية، وسلجوقية، وعثمانية. أنطاليا التي يرجع تاريخها إلى 150 عامًا قبل الميلاد، لعبت لسنوات طويلة أدوارًا مهمة في الحروب التي شنتها الإمبراطوريات التي سادت تلك المنطقة، باعتبارها من أهم المدن المتوسطية.. ولقدرتها على مد الأساطيل البحرية الحربية لتلك الإمبراطوريات بالجنود والمؤن لشن الغارات.

في هذا المتحف المفتوح الواسع، دائمًا ما تكون البداية صعبة لأن الخيارات متنوعة وممتعة. لذا فضلت -بعد نصيحة الأصدقاء- أن أنظم وقتي وفقًا لبرنامج محكم، بعد استشارة شركة السياحة التي أعدت لي هذه الرحلة.

كانت الأولوية في برنامج الزيارات لمتحف «أنطاليا»، الذي يعود تاريخه إلى العام 1922م حيث تم نقله بين أكثر من موقع، حتى استقر به الحال في موقعه الحالي بوسط المدينة، وهو يعد واحدًا من أهم المتاحف العالمية التي تعرض فن المعمار.

ثم أعيد افتتاحه في عام 1985م بعد إجراء العديد من الإصلاحات عليه. لا تشعر بمضي الوقت داخله خاصة أنه يضم 13 قسمًا، بالإضافة إلى صالة عرض في الهواء الطلق -جمعت مقتنياته من كل أرجاء « أنطاليا» - من آثار إغريقية، وتحف رومانية، وتماثيل الآلهة.. كذلك يضم مقتنيات من الدولة العثمانية.

ونظرًا لثراء المنطقة حضاريًّا، فإن المزارعين والبنائين عادة ما

يعثرون على قطع أثرية نادرة أثناء عملهم اليومي. وكلما تم الإعلان عن كشف أثري جديد، وضع في هذا المتحف على الفور؛ فالدولة التركية حريصة جدًّا على حفظ آثارها وعدم تسربها إلى الخارج.

في اليوم السادس من إقامتي، تضمن برنامج الزيارات جولة في «أسبندوس»، وهي مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد «البامفيليين».. تبعد حوالي 40 كم من وسط أنطاليا باتجاه الشرق.. وحسبما عرفت فإنها تأسست قبل ألف عام من الميلاد.. يا لها من مدينة عتيقة غارقة في القدم!!

أهم ما يميز أسبندوس هو مسرحها الذي بني في العام 155م على يد المهندس المعماري «زينون»، إبان عهد الملك «ماركوس أوروليوس»، في القرن الثالث عشر.. وهو من أهم المسارح الرومانية على الإطلاق بمعماره الفريد الذي يشابه -من الخارج والداخل- معظم المسارح الرومانية.. إلاّ أن هندسته الداخلية الدقيقة.. وقدرته الاستيعابية التي تصل إلى أكثر من 7 آلاف متفرج.. والتقنيات الهندسية الصوتية الطبيعية المستخدمة فيه.. جميعها أشياء أكسبته عن استحقاق مركز الصدارة بين المسارح الرومانية حول العالم.

وتعود قصة هذا المسرح إلى رهان عقده الملك مع المهندس «زينون» ومهندس آخر.. على أن يتزوج من ابنة الملك الحسناء أفضل مهندس معماري بينهما، فقام «زينون» بتشييد هذا المسرح العريق، الذي استخدم بعد حقبة الرومان كسكن للقوافل التي تمر عبر طريق

الحرير، وثكنة عسكرية في العهد العثماني.. غير أن الوضع اختلف تمامًا بعد إعلان الجمهورية التركية حيث أعاده الزعيم كمال أتاتورك إلى طبيعته الأولى ووظيفته الأساسية كمعلم فني وثقافي وحضاري. بل إنه دوَّن كلمة تاريخية في لوحة معلقة على بوابة المسرح.. مطالبًا الأتراك أن يهتمُّوا بالتمثيل والإبداع الفني.. وأن يتصدَّوا لأي محاولة تستهدف غلق هذا الصرح العريق.

أول من عمل بنصيحة الزعيم أتاتورك كانت فرقة «نيران الأناضول» الشهيرة، فراحوا يشيدون في عام 2008م أكبر مسرح حديث في العالم، على مسافة قدرها 1300 متر مربع ليكون مقرًّا للأحداث الثقافية ومهرجانات الرقص والباليه. شيد بالقرب من مسرح أسبندوس القديم، وهو يتسع لـ 4500 مشاهد.. يذكر أن فرقة نيران الأناضول هي فرقة تركية للرقص الشعبي، تحظى بشهرة دولية كبيرة لما تقدم من أعمالٍ تحمل ملامح أعمال الفسيفساء القديمة التي تعكس سمات الأناضول من الحب والثقافة والتاريخ والسلام.. أسعدني الحظ أن أشاهد عروضهم في أزمير.. وفي دار الأوبرا بالقاهرة.. كما قدموا حفلات من وراء الخيال تحت سفح أهرامات الجيزة، وفي قلعة المقطم.. وهو ما لقي استحسانًا كبيرًا من الجمهور المصري.

***

الآثار التي تركها السلاجقة وراءهم كثيرة ومتنوعة على هذه الأرض التي تولوا حكمها مع بداية القرن الثالث عشر. بعضها

يتشابه -من حيث الفن المعماري والزخارف- مع آثار أخرى لهم شاهدتها خلال جولتي في محافظة إرزروم.

العمارة السلجوقية تتمتع بخصائص متميزة أكسبت مبانيها صلابة وصمودًا أمام تحديات الزمن.. تجلى ذلك في اختيار المعماريين لأفضل نوع من الحجارة، منها الرملية والجرانيتية، والمرمر، والرخام، والصخور.. وفي التخطيط لأي مبانٍ، غدت البركة في الصحن عنصرًا أساسيًا، وهي مربعة الشكل أو مستطيلة أو مثمنة مع حنايا في أركانها.. كما استعملت الأقبية المهدية والمتقاطعة في التسقيف، وتنوعت أشكالها بين مخروطية، هرمية، ذات طبقات متدرجة أو مقرنصة.

كذلك، تنوعت أشكال المآذن ما بين أسطوانية، أو مخروطية، أو مضلعة على شكل مجموعة من أنصاف الأعمدة.. إضافة إلى الخط الكوفي المزخرف المستعمل في نقش النصوص على المباني، ظهر الخط المعروف بالنسخ أو الثلث وكان بسيطًا خاليًا من الزخارف.

لم ترعيني أجمل من مئذنة مسجد «ييفلي ميناره لي» بوسط المدينة.. والذي قام ببنائه السلطان علاء الدين كايكوبات في القرن الثالث عشر، بما لها من تصميم رشيق يجنح إلى تصميم العمود المعماري الكلاسيكي، وقد أصبحت اليوم هذه المئذنة رمزًا لمدينة أنطاليا.

من ناحية أخرى، تعد مدرسة الكار أطاي -وهي مدرسة لاهوتية- من أهم آثار السلاجقة المتبقية هناك، وهي تقع في حي

قلا أيجي، ويرجع تاريخها إلى نفس الحقبة الزمنية، وهي تجسد أفضل مثال على عبقرية فن السلاجقة في النقوش المنحوتة على الحجر.

المساجد في تركيا -على وجه الإطلاق- تجسد كنوزًا فنية وقيمة معمارية على مستوى راق من الجمال والإبداع.. باختلاف عصورها وتاريخ تأسيسها.. يكفي أنها تبرز تفاصيل داخلها حنان وحنين.. وغموض لزمن الفن المعماري الأصيل.

***

كانت ساعة الغروب بالنسبة لي هي ساعة مقدسة.. لا يمضي يوم دون أن أقف على شواطئ أنطاليا الدافئة أتأمل شمس الأصيل المودعة.. خالعة وشاحها الأرجواني.. ويظل الغروب ذلك المنظر الصامت يوهمني بالوعود.. وأظل أنا في قائمة الانتظار.. وما أصعب الانتظار!! أبحث داخلي عن الأمل في يوم جديد مشرق.. أحلم بساعة غروب آلامي وانجلاء أحزاني.

ستنجلي أيها الغروب، وأبقى أنا أسيرة هذا الجمال وحدي!

وقفت على صخرة تقبع بجوار الساحل.. أردد بأمل وتفاؤل القصيدة البحرية للرائع نزار قباني:

في مرفأ عينيك الأزرق

أمطار من ضوء مسموع

وشموس دائخة وقلوع

ترسم رحلتها للمطلق

في مرفأ عينيك الأزرق

شباك بحري مفتوح

وطيور في الأبعاد تلوح

تبحث عن جزر لم تخلق

في مرفأ عينيك الأزرق

أركض كالطفل على الصخر

أستنشق رائحة البحر

وأعود كعصفور مرهق

في مرفأ عينيك الأزرق

أحلم بالبحر وبالإبحار

وأصيد ملايين الأقمار

وعقود اللؤلؤ والزنبق

***

الباب التاسع
إرزروم.. مدينة سلجوقية بلون الثلج

تجمع بين الواقع والأسطورة.. بين الحقيقة والخيال.. ربما تكون قرأت وصفها في إحدى قصص «ألف ليلة وليلة».. فتاريخها يرجع إلى 4000 عام قبل الميلاد.. إنها «إرزروم»، مدينة البحث عن الزمن الضائع.

شوقٌ إلى المجهول يدفعني لاكتشاف المدينة التي اشتهرت في العصور القديمة بين الأمم كمركز ثقافي وحضاري وفني ضخم. فقد عاش على أرضها الواقعة شرق الأناضول حضارات وأسرات مختلفة: الحوريون، والبارثيون، والساسانيون، والميديون، والسلاجقة، والرومان، والبيزنطيون، والعثمانيون.. وهو ما جعلها زاخرة بالمساجد، والحصون، والأبراج، والقباب التاريخية العتيقة التي تعود لمئات السنين.

وحـدي في المقعد المجاور للنافذة الزجاجية -بالحافلة التي كانت تقلنـا من المطـار في اتجـاه الفندق- تذوقـت لحظات الراحـة وهدوء النفس في مدينة لا يتسـلل إليها الخوف. ربما تكون البسـاطة هي سر الأسرار في جمالها.

تمر الحافلة بـين الطرقات الممهدة.. قاطعة الحقول في يسر.. فترى لوحات عديدة ومدهشة للريف التركي، يتشابه الكثير منها مع الريف المصري.. هنا فلاحون يزرعون الأرض.. آخرون يحرثونها.. وهناك مـن يرعى الغنـم والمواشي.. أطفـال معلقون على غصون الشـجر.. وغيرهـم يمرحـون ويلهـون وسـط الأخضر.. سـيدات جالسـات أمـام الأفـران يخبـزون العيـش ويتبادلـون أحاديث السـمر.. معظم نسـاء إرزروم يرتدين الحجـاب. كذلك الفتيات يتميزن بالاحتشـام والمحافظـة على عكس الفتيات في المـدن الحديثة والعواصم. الملابس واسعة فضفاضة لا تشف، وأغطية الرأس تغطيها بكثافة نقوش ذات ألوان زاهية.

أما الرجال فقد أكسـبتهم هذه الأرض الطيبة سمات خاصة منها: الصلابـة والقوة.. الدأب والسـعي وحب العمل.. هـؤلاء هم أهل إرزروم الشرفاء.. أفراد الشعب الطيب الصبور مصدر كل السلطات في كل زمان ومكان. يشكل الأكراد 40 ٪ من سكانها، والبقية أتراك وأرمـن وجورجيون. ربما تختلف الطوائـف والأعراق، لكن الجميع هنا يميل إلى الاحتشام والحفاظ على العادات والتقاليد.

مشاهد لا تنتهي.. والوقت ينتهي.

لكن الأرض تقيد خطواتي.. تجذبني، وتشدّ قبضتها على قدمي!! الأرض الطيبة تطالبني بألّا أغادرها.. وأن أستمتع بسيمفونية الحب وإيقاع العمل الجماعي المتكامل المنبعث منها.

***

دخلتها في الشتاء، وكان اللون الأبيض يكسو أجزاء كثيرة من مساحاتها. كرات الثلج تتناثر في الهواء بكل الأحجام.. ما أبهى وأنقى هذه اللحظات الخالدة!! بأعماقي ترتجُّ أهوائي وأشواقي أمام صفاء المشهد، وهي التي تعد جنة لعشاق الرياضات الشتوية حيث يتساقط الثلج عليها طوال 150 يومًا من كل عام. عادة يبلغ ارتفاع الثلج فيها 2 إلى 3 أمتار تقريبًا في الشهور الواقعة بين ديسمبر ومارس.

وصلت مركز «بالاندوكن» وهو من أهم مراكز التزحلق على الجليد والرياضات الشتوية، ويضم أعلى قمة لجبل «جريت إجدر» التي تصل إلى 3188 مترًا. المشهد رهيب ومثير!

لا أجيد التزحلق على الجليد، لذلك قررت أن أنعم بسحر الأبيض وجماله الأخاذ.. فاستقللت التلفريك مع الأصدقاء. من أعلى، المشهد أكثر رهبة وأكثر مغامرة!! كل شيء يبدو صغيرًا جدًّا على الأرض.. فسيفساء.. منمنمات.. أطياف بشر تتراقص على الجليد.. أشجار الصنوبر الفارعة تبدو وكأنها نقطة في بحر الثلوج. لم نتوقف عن الضحك والمداعبات وتبادل التقاط الصور.. لم نترك

الفرصة لانتصار مخاوفنا علينا. فنحن نستقل مركبة أشبه بكيان تائه، معلق بين السماء والأرض.. إلى درجة أن بعضنا صوت دقات قلبه من الخوف كانت تعلو على صوت ضحكاته. وما إن نزلنا على الأرض ثانية حتى تنفسوا الصعداء.

حول هذه الأرض الجليدية، جلست مع رفاقي على أحد المقاهي لنحتسي مشروبات ساخنة. أرسلت بصري في المدى.. أتابع مسابقات التزحلق.. متعة حقيقية لمن يجيدها!! ومتعة أيضًا لمن يشاهدها!! فمثلنا ممن نشئوا وترعرعوا في دول مناخها دافئ طوال العام لم يكن لنا عهد بهذه الألعاب الشتوية.. عادة ما يمارسها الأوروبيون.

صيحات فرح تعلو الفضاء الأبيض الواسع.. الأطفال والكبار يتبارون في ساحات التزحلق لاستعراض مهاراتهم في القفز والمراوغة للأحجار والأشجار التي تشق الجليد.. قد يسقط البعض مرات ومرات على الثلج، لكن حب المغامرة وخوض التجربة غالبًا ما يشكل دافعًا للمحاولة من جديد، والإصرار على تحدي مداعبات الطرق البيضاء.

استغرقت في نشوة فائضة شاملة تلتهم الوقت.. تمضي بي الساعات لا أدري بها.. ما حيلتي؟!! وأنا غارقة في واحة بيضاء شفافة كنور الصباح، زكيَّة نقيَّة كقطر الندى.

***

شامخة بعمارتها وهندستها الفريدة.. باهية بألوانها الزاهية.. في

كل ركـن أو زاوية يبزغ معلم سـلجوقي يقـف في وجه الزمان في تحدٍّ وصمـود. لقد وقعت هذه الأرض تحت حكم الدولة السـلجوقية في عام 1071م وصارت عاصمة لها.

«المدرسـة الياقوتية» هي أول محطة توقفت عندها في جولتي. وقد شيدت في زمن السلطان أولجايتو حاكم الألهانية من قبل جمال الدين خوجة ياقوت غزاني عام 1310م.

روحـي هائمة مشـغوفة بالسـيمترية وتـوازن البنايـة.. بالزخارف الموجـودة عـلى واجهة بـاب المدرسـة، والتي تجسـد موتيفـات زراعية وهندسـية وتصويرات رمزية مصممة بإتقان شديد، جميعها شاهد على عبقرية المعمار السلجوقي.. ودليل على أنه كان صاحب قوانين علمية.

خلعت على بابها ساعة الزمن، ودخلت في حقبة عتيقة.. أوغل في أبعـاد الصمت.. أتعمَّق في تأمل التفاصيل المطمورة.. المدرسـة تضم داخلها مسجدًا غاية في الجمال.. تفقدت غرفًا كان الطلبة يتلقون فيها العلـوم والفنـون المختلفة.. تكسـو جدرانها أوراق مـن كتب الفلك والرياضيات التي كانوا يدرسونها.. داخل فترينات زجاجية ما تبقى من بعض مجلدات الطب والهندسة.

اسـتوقفني كذلك جناح خاص يعرض أزياء نسـاء إرزروم، التي يغلـب عليها تطريـز وتصميمات أصيلة وألوان بديعـة.. وعلى مقربة من الجناح تشـاهد بعـض مقتنيات العثمانيين مـن مجوهرات مرصعة بالأحجار الكريمة، وأسلحة وسيوف، وأطقم شاي وقهوة.

بالرغم من إعجابي الشديد بعمارة المدرسة الياقوتية، فإن مدرسة «جفته منارلي» كانت منافسًا قويًا لها.. تربض في قوة وجمال أخاذ يفرض وجوده على جميع كتابات المؤرخين ومدونات الرحالة ومشاهدات الزائرين. هي واحدة من أكبر مدارس الأناضول التي اشتهرت أيضًا باسم «المدرسة الخاتونية»؛ تأسست في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، وهي تتكون من طابقين متشابهين في التصميم، يطل على فنائها الواسع المفتوح غرف الطلبة، ويعلوها منارتان غارقتان في القدم، تفوح منهما رائحة الماضي البعيد.. كوجه ضائع في التيه، تحيط بها أربعة جدران عالية، تحمل الكثير من الأسرار. لكن من يفك اللُّغز؟! ومن يكشفُ سرَّ الكلمات؟!

الزخارف والنقوش الموجودة على جدرانها تجسد صورًا مختلفة -عادة ما تحملها كل عمارة لها طابع سلجوقي في الأناضول- منها: النسر، التنين، شجرة الحياة.. أخبرني المرشد السياحي «سينام» الذي كان يرافقنا بالجولة أنه في عصر الدولة العثمانية تم استغلال هذا الصرح العظيم كمستودع للأسلحة والذخيرة.. وتحول أيضًا جزء منه إلى ثكنة عسكرية.

على بعد خطوات من المدرسة، تنتشر المقابر والأضرحة المغطاة بالرخام الفاخر الأبيض.. جئت أستجدي بعض سكينة وعبرة وطمأنينة في رحابها المغلق في وجهي.. غارقة في الصمت.. كاسية بتراب الموت.. عبثًا، لا رجع صدى لا صوت.. وهي التي تعد من أكبر مقابر المسلمين في تركيا.. لا شيء هنا غير الصمت وظلّ الموت. وداعًا أجدادنا وأحباءنا.

طريق الحرير

يوم جديد شهدت ميلاده هنا.. الشمس تلقي بأشعتها على الجليد الذي يفترش اليابس والأخضر.. فتشعل الأبيض وتكسبه ضوء النار.. يحدث في إرزروم، ركن من الدنيا وراء البعيد.

استقللت الحافلة.. كنت أفكر طوال الطريق فيما ينتظرني من جديد ومثير.. فأنا على موعد لزيارة «متحف إرزروم». هذه الجولة كان يرافقني فيها «عمر بك» مندوب من المحافظة. الرجل كان يتحدث التركية والإنجليزية بطلاقة، لكنني أكسبته -بعد ساعات قليلة- بعضًا من المرادفات العربية الأكثر شيوعًا في مصر، والتي كان يتهجاها بصعوبة وبطريقة مثيرة للضحك.

لم يدخر عمر بك أي جهد في محاولة منه لفك شفرة المكان والزمان والبشر لهذه البقعة العتيقة. عرفت منه الاسم القديم للمدينة «كلو كليم»، وهي نسبة إلى ازدهار تجارة الكليم والسجاد، التي غالبًا ما كانت تنتشر صناعتها داخل الجبال، وهو ما أعادني بالذاكرة للوراء.. إلى الصناعات التي عرفها العالم القديم.. خاصة أن إرزروم كانت واحدة من المحطات التي كان يمر بها «طريق الحرير».

ربما لم تسمع الأجيال الحالية عن هذا الطريق من قبل. فقد توارى الحديث عنه بالرغم من قيمته الحضارية والتاريخية العظيمة.. ولم يعد يطل علينا إلَّا من كتب الرحالة والمؤرخين.

«طريق الحرير» هو أهم وأقدم وأطول خط تجاري عرفته البشرية

وسـارت عليه تجارات الدنيا. يبدأ من الصين، مرورًا بإيران وروسيا والعراق وسـوريا، ويصل إلى أفغانستان وباكسـتان وتركيا والأردن ولبنان وفلسـطين ومصر. عـبرت عن طريقه جميع أصنـاف البضائع من توابـل وبهارات، وبخـور وعطور، وأقطان وأصـواف، ومعادن وأحجـار كريمـة.. غـير أن الحريـر كان يعد أهم سـلعة تمـر عبر هذا الدرب، وقد اكتسـب اسـمه نسـبة إلى حرير الصين. يذكر أن الصين احتفظت زمنًا طويلًا بسر تربية دودة القز وصناعة الحرير.

كذلـك، عـبر على هـذا الطريق أهم سـلعة في العصور الوسـطى أنتجها الفينيقيون.. وهي الورق.

وفقًـا لما ذكره المؤرخ الشـهير هـيرودوت، كانت قاعـدة انطلاق القوافل على طريق الحرير تبدأ من المدن الصينية. وأكد لي «عمر بك» أن الطريـق كان يمتـد لسـواحل البحر الأسـود عند ميناء طرابزون التركي شـمالًا، ويتفرع منه طريق آخر يصل إلى إسـطنبول في الشـمال الغربي.. بينما يتجه فرع ثالث منه إلى ميناء أنطاكية على البحر المتوسط في الجنوب.

لا شـك أن هذا الطريق الدولي اكتسـب شهرته، ليس فقط لكونه ممرًّا تجاريًّا فحسـب، بل كذلك لقيمته كجسر للتواصل بين الثقافات والحضـارات الإنسـانية.. وأهـم تلك الحضـارات: حضـارة إيران، والصـين، والهنـد، واليونان، والـروم، والحضارة الإسـلامية.. تلك الحضـارات القديمة التـي تفاعلت.. أثرت وتأثـرت.. فكان التبادل

المعرفي يمتد بين الشعوب التي تشارك في هذا الطريق من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

كما شهد «طريق الحرير» مرور عظماء التاريخ على دربه، من بينهم: الإسكندر الأكبر، والرحالة ابن بطوطة، وماركو باولو...

غير أن الصراعات والخلافات السياسية التي نشبت بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية كانت سببًا رئيسيًّا في توقف هذا الطريق الحلم.. الذي مثَّل معاهدة سلام وتعايش.. كتبت حروفها الطبيعة.. ووقعتها يد الإنسان.

***

دنيا زاخرة بقطع أثرية نادرة توثق للخلود.. تؤرخ للأصالة.. تحكي تاريخ شعب عمره آلاف السنين.. تجدها في «متحف إرزروم». يضم هذا الصرح التاريخي ثلاث قاعات كبيرة بها 7624 قطعة أثرية تعود لأكثر من ثلاثة آلاف عام مضى.. ما بين عملات معدنية، وأوان فخارية، وحلي، وسبح، وأواني طهو وأباريق، وأجراس كنائس...

إلى جانب المقتنيات الفريدة، هناك مكتبة ضخمة تفتح أبوابها للطلبة والباحثين، وهي تحوي 4682 كتابًا في جميع المجالات، من بينها 311 كتابًا مكتوبًا بخط اليد.. غالبية هذه الكتب بالتركية، لكنها كتبت بحروف عربية.

يعطي المتحف، الذي افتتح منذ عام 1968م، الكثير من المعلومات عن تطور الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية للإرزروميين، فهو يعد

بانوراما ساحرة بحق لحضارة هذه الأرض الطيبة الثرية، تتجلى في قطع الآثار.. ومجموعة من القواقع البحرية.. والأخشاب القديمة.. وعظام الديناصورات.. جميعها ينتمي لحقب تاريخية مختلفة.

هالني كثيرًا بعض عظام عثر عليها في هذه المنطقة للنموذج الأول للفيل. تم وضعها بعناية على مجسم كبير مصنوع من الخشب. اقترب الشكل من الواقع جدًّا.. وكاد أن ينطق الفيل الخشبي ويتحرك من أمامي!

التقيت في جولتي داخل المتحف بمرشدة سياحية كانت تدعى «جول هانم» واسمها بالتركية يعني زهرة.. وهي زهرة بحق تفوح بالجمال والرقة. عرفت منها أن معظم السائحين الذين يترددون على المتحف هم غالبًا من روسيا والصين واليابان وأذربيجان.. كما تنظم المدارس والجامعات التركية رحلات ثقافية طوال العام، يدخل ضمن برنامجها زيارة لهذا الأثر الهام جدًّا. ونظرًا لسهولة المواصلات بين إرزروم وباقي محافظات تركيا فإن جمهور المتحف كبير ولا ينقطع عنه طوال العام أبدًا.

أخبرتني جول هانم أن المتحف كان يضم أيضًا آثارًا إسلامية، لكن تم نقلها في عام 1994م إلى المدرسة الياقوتية. وضمن عمليات التجديد والتطوير التي يشهدها المكان، تم تدوين الكثير من المعلومات حول القيمة التاريخية للمتحف ومحتوياته.. وبالتالي يسهل على أي شخص أن يطَّلع عليها من خلال موقع وزارة الثقافة

التركيـة. اطَّلعـت بنفسي عـلى الموقع وأنا أجلـس في مكتبها الخاص، بعـد أن اسـتضافتني لتنـاول الشـاي معها.. الموقـع مـدوَّن بالتركية والإنجليزيـة، وزاخـر بصور لا حصر لها.. وهـم في طريقهم لإعداد نسخة عربية للزائر العربي لموقعهم.

تفاصيل كثيرة عن حياة ناس إرزروم القدماء تجدها هنا.. ساعات مـن الزمن تتوقف بك داخل هـذا المتحف لا تشـعر معها بالوقت.. لكنك تسـعد بما تسـمع وتـرى من قيمـة ومعان لحضـارات عملاقة اندثرت.. تركت وراءها شاهدًا على التاريخ.

***

كل يوم لك في إرزروم اكتشاف.. وفي كل اكتشاف سعادة.

انطلقـت في الصبـاح الباكر إلى شـوارع المدينـة الجميلة بهدف أن أغوص في طرقاتها وأزقتها وأسـواقها.. فالنزهة والسـير على الأقدام -بالرغم من برودة الطقس- متعة لا مثيل لها بالنسبة لي.

التجوال بين آثار السـلاجقة متعة عظيمة.. سياحة بين العصور.. وارتحـال بين صفحات التاريخ. المنظـر الطبيعي الغني بتعدد مفرداته وثراء تشكيله على هذه الأرض يأخذ العقل من فرط جماله. المدينة هنا تمنح زائريها ثلاثة أشياء: البساطة، والأمانة، والابتسامة بلا مقابل.

كان الهـواء محملًا برائحـــة الثلـج والنقاء والطهر.. وكان الفضاء الأبيض من حولي يثمر أشـجارًا فارعة الطول.. بعضها كانت تكسو أغصانها أوراق.. والبعض الآخر نفض عنه الشتاء أوراقه.

أسير ببطء وحذر شديدين خوفًا من عدم مقدرتي على مواجهة مداعبات الجليد.. فالفشل في حفظ التوازن قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

في طريقي استوقفني مبنى جامعة أتاتورك لما له من إطلالة مميزة يضفي عليها الهيبة والشموخ.

كان «عمر بك» المرشد السياحي قد أخبرني أنه عندما تم افتتاح هذا الصرح العلمي الكبير في عام 1958م لم يكن يضم سوى كلية الزراعة وكلية العلوم والآداب فقط.. أما اليوم فهو يحوي داخله 17 كلية وستة معاهد، و17 مركز بحث.. وتعد الجامعة اليوم إحدى أكبر الجامعات بتركيا على الإطلاق حيث يدرس بها 45 ألف طالب. ويقوم بالتدريس لهم 3000 معلم.

ما أعظمك يا تركيا وأنت تأخذين من العلم سلاحًا لك!! فالعلم وحده نصنع المستقبل. هكذا تبني الأمم أمجادها وتبحث لنفسها عن مكان تحت الشمس.

على بعد أمتار من أسوار الجامعة، انشق من قلب الطرق نافورة تجمدت المياه بها تمامًا.

من شدة برودة الطقس، تحول حوض المياه إلى كأس كبيرة معبأة بالثلج الأبيض. يعلو النافورة تمثال من البرونز طوله ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريبًا للزعيم مصطفى كمال أتاتورك وهو يرتدي معطفه والكاب على رأسه، وإلى جواره لوحة مستطيلة رخامية تصور إحدى

جلسات مجلس الشعب. توقفت بضع دقائق أمام التمثال كي أتأمل مؤسس دولة تركيا الحديثة الذي نجح في أن يجمع هذا الشعب على قلب رجل واحد. وقبل أن أرحل، قرأت عليه السلام.. وانطلقت على غير هدى في طرقات المدينة الساحرة.

البيوت في إرزروم لها طابع خاص مستوحى بعض الشيء من روح الشرق. من السهل أن تلاحظ وجود تناسق وانسجام بين البيوت الحديثة وبعضها رغم اختلاف ألوانها. أما البيوت القديمة، فهي قصة أخرى. في العادة، كان يستخدم في بنائها ثلاثة أنواع رئيسية من الأحجار: الأسود، الأحمر، والحجر المخطط. ثم تأتي الأخشاب في المرتبة الثانية ضمن المواد الأساسية للبناء. تدخل في صناعة الأرضيات والأسقف والسلالم والأبواب والنوافذ والخزائن بشكل بديع ومتناهٍ في الإتقان. لا شك أن احتفاظ الأخشاب برونقها وجمال تصميماتها رغم مرور السنين هو خير دليل على تفوق هذه الصناعة في إرزروم.

ويعتبر المطبخ أو الـ «تانديرفي» أهم ركن من أركان البيت التركي. لا يقتصر دوره على تسوية الطعام والطهي داخله فحسب، وإنما يشهد أيضًا تجمع الأسرة حول طبلية كبيرة، يجلسون حولها على الأرض، لتناول وجبات الإفطار والغداء والعشاء. إلى جانب قضاء أوقات السمر وتبادل الأحاديث التي عادة ما يصاحبها تقديم القهوة التركي والشاي والحلوى.

من السمات المميزة للمطبخ الإرزرومي القديم وجود فرن صغير داخلـه.. وأرفف ترص عليها الصحون.. وكرسي حجري للجلوس عليه.. ومستودع طعام.. وأحيانًا نافورة ماء.

وهناك أطباق ذائعة الصيت يتمتع بها المطبخ هنا، يأتي في مقدمتها الكاتـش كباب.. وهو عبارة عـن 90 ٪ من لحم الخروف مُضافًا إليه 10 ٪ من اللحم البقري.. تقطع على هيئة شرائح صغيرة ورقيقة جدًّا يتم وضعها في أسياخ بعد إضافة التوابل لها وتركها تستقر لفترة زمنية -بحيـث تكتسـب رائحة وطعم هـذه التوابل- مع خليـط من اللبن والبصل والفلفل الأسود والحار.

بالإضافة إلى الكاتش كباب التي تنتشر محلاتها في أنحاء المحافظة، تلقى كذلك محلات القطايف رواجًا جماهيريًّا واسعًا من قبل السائحين وأهـل المدينة على السـواء. والقطايف في تركيا ليسـت مثل القطايف المصرية وإنما هي الكنافة التي يتم برمها وحشـوها بالمكسرات لتأخذ شـكل الأصابع الطويلة. ثم تغمر في الزيت السـاخن، ويتم انتشـالها بعد أن تكتسـب اللون الذهبي. وتوضع بعد ذلك في العسل، وتقدم كصنف حلو بعد تزيينها بالفستق المبشور.

وصفات وأطباق عديدة تتذوقها هنا.. بعضها مقتبس من المطبخ العثـماني، والبعض الآخـر يعد وصفات خاصة بأهـل المدينة. في كل الأحـوال، فـإن جميـع الأطبـاق لها مـذاق حلـو ولذيذ لا تشـعر معه بالاغتراب عن المطبخ المصري.

ســوق رســتم باشــا

لا تغيـب أبدًا صورة مصر عن الذاكـرة.. موطن الحلم.. يأخذني إليهـا الشـوق والحنين.. خاصـة خلف حـدود الليل، كلـما طرحت رأسي عـلى الوسـادة لأنام.. حـام أمامي طيـف أمي.. تشعُّ جبهتها كضوء النجوم.. عساها تفكر بي الآن!!

بلا أهل.. بلا وطن.. تحتضنك أرصفة وشوارع الغربة في إرزروم. يستقبلك أهلها بحفاوة وكرم يبعث الدفء في نفسك، ويذيب جليد السـفر والوحدة.. الابتسـامة على وجوه المارة تشفي العليل وتطيِّب الجروح. لا شـك أن طبيعة أهل الريف أكثر إنسـانية من أهل الحضر والعواصم؛ فإنسان هذا العصر قاحل فقير.. تسطَّحت أبعاده.

في يوم ليس ككل الأيام، خرجت أفتح باقي أبواب المدينة.. أمشي وأمـشي.. فإذا بي أكتشـف أن هذه الأرض البكر تنتشر بها الأسـواق والمحال التجارية القديمة والحديثة.. يغمرها سـيل من الكافيتريات والمطاعم والمقاهي.. بالإضافة إلى السوبر ماركت المنتشر بمعدل كبير هنـا وهي ظاهرة إن دلت فإنها تدل على ارتباطها بالتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي شهدته المحافظة في السنوات الأخيرة.

السـاعة في يدي تشير إلى الخامسة مساء.. حبيبات الثلج الصغيرة تتطايـر في الهـواء كالغبار. لفـت انتباهـي هناك خلف مدرسـة جفتا مينـارلي وجود سـوق تجـاري ضخم -يتكـون من طابقـين- مغطى بالكامـل بالخشـب. فكـرت أن أتخذه مـلاذًا لي من هجـمات الصقيع

والثلـج.. عـلى الفور أسرعـت الخطى تجاهـه للاحتماء به ومشـاهدة معروضاته.

السـوق المغطى كان في قديم الزمان محطـة تاريخية للقوافل، بناها الصدر الأعظم رسـتم باشـا في عهد السـلطان سـليمان القانوني على نمـط العمارة العثمانية في القرن السـادس عشر الميلادي. ثم تحول فيما بعد إلى سوق تجاري، عرف باسم سوق «رستم باشا».

المحـلات فيه عامرة بالبضائع والمشـغولات اليدوية التي تشـتهر بصناعتهـا إرزروم، مثـل: الخـزف والفضـة.. القهـوة والمكسرات المتنوعـة.. الإيشـاربات الحريريـة والشـيفون.. إلى جانـب التحـف الخشبية والزجاجية.

يتميز السـوق أيضًا بمحـلات وورش صياغة حجـر «الأولطو» الأسـود اللون، وهو حجر لامع ذو طبيعة إسـفنجية.. تم استخدامه في العصور الوسـطى في صناعة المسابح وصناديق الأمانات المقدسة، والتماثيل.. كما اسـتخدم في القرن التاسع عشر في صناعة المجوهرات والحـلي. وقـد عرفت من أحـد الباعة بالسـوق أن حجـر الأولطو له فوائـد طبية غاية في الأهمية، فهو لـه قدرة هائلة على امتصاص الطاقة الزائـدة عن حاجة جسـم الإنسـان، لذلك يُعد من الأحجـار القيمة التي تشـتهر بهـا إرزروم، والتي تدخـل في صناعة المسـابح والحلي.. وعلب السجائر.. وغيرها.

مـر الوقت سريعًا جدًّا داخل السـوق نظـرًا لضخامة معروضاته

وتنوعها. فهو بحق ضالة عاشقي الصناعات اليدوية ومريديها. خرجت من بوابته إلى الشارع من جديد.. كانت قناديل المدينة مضاءة بصورة تبعث الراحة والأمن في نفوس المارة وهواة النزهة المسائية. وكان القمر يهدي في الليل خطى الساري.

توقفت حبيبات الثلج عن التساقط بما يتيح الفرصة مرة ثانية للغوص في شوارع المدينة الحبيبة. غير أن التعب كان قد نال منِّي، وفضلت العودة إلى الفندق.. وهناك أمضيت سهرة جميلة لا تنسى حيث تناولت وجبة العشاء مع الاستمتاع بالموسيقى وعروض الرقص الفلكلوري التي قدمتها مجموعة من الراقصين والراقصات بالزي الشعبي لمنطقة شرق تركيا. لحظات ممتعة إلى حد أن بعض الحاضرين نزل إلى حلبة الرقص لمشاركة الفرقة في رقصاتها بعفوية وارتجالية.

يوم جميل مضى في شوارع مدينة فتحت أبواب أسرارها لمن يملك مفاتيح الخيال. وكانت الابتسامة الصادقة المرسومة على وجوه سكانها هي سر الأسرار في جمالها. يوم من عمري سوف يظل خالدًا في الذاكرة.

***

للحق تتطور إرزروم بفضل أرض خيرة مليئة بالكنوز.. وأنظمة حكم مليئة بالانتماء. يتضمن برنامج زيارتي لقاء مع الوالي، المحافظ السابق السيد جلال الدين جيفنشي.

للعلـم، «المحافـظ» في تركيـا يطلق عليـه «الوالي»، كـما كان عليه الحال في مصر سابقًا.

تحدث الوالي معي عن المستقبل السياحي للمدينة وفرص الاستثمار بها.. خاصة أنها تأتي في المرتبة الثانية بعد سويسرا بفضل وجود أطول طريـق للتزحلـق على الجليـد، يبلغ طوله 19 كم. ونظرًا لأن المسـافة ما بين إسـطنبول وإرزروم لا تسـتغرق سوى سـاعة ونصف الساعة بالطائـرة، فهـي تشـكل منطقـة جذب سـياحي للأجانـب والأتراك عـلى السـواء. كما أوضـح لي أن ميزانية السـياحة المخصصـة للمدينة تبلـغ 150 مليـون دولار.. وأن المحافظـة تعمـل عـلى زيـادة حجم الاسـتثمارات إلى 500 مليـون دولار. وأعرب جلال الدين عن أمله في زيادة اسـتثمارات العرب والمصريين للمشاركة في التنمية السياحية لإرزروم، مؤكـدًا أن المحافظـة سـوف تعطـي الأرض مجانًا لكل من لديه رغبة في إقامة فنادق ومنتجعات سياحية.

كان الـوالي طوال حواره معي يتحـدث الإنجليزية بطلاقة، معلنًا بذلـك أن مدينته في طريقها للاتصال والحوار.. راغبة في الخروج عن صمتهـا وإسـقاط الحواجز التي تعـوق تواصلها مع الآخـر.. فعزلة الإنسان تأتي من عزلة لغته التي لا يجيدها الكثيرون.

لعبـة الجـريـت

لـكل دولة في العـالم رياضة أو لعبـة خاصة بهـا تتوارثها الأجيال مـن الأجداد.. ولعبة «الجريت» كانت لعبة أجداد الأتراك منذ مئات

السنين، وهي من الألعاب الشهيرة في إرزروم بشكل خاص، ولها جمهور عريض هنا. تعتمد على فن الفروسية والرماية في آن واحد. لذلك فإنها تمثل لعبة الشجاعة والحرب. ولا يخفى على أحد أن الحصان كان بالنسبة للأتراك شيئًا مقدسًا، لا يمكن التخلي عنه، فقد كانوا يولدون ويكبرون ويحاربون ويموتون على الجواد.

سنحت لي الظروف خلال وجودي هنا أن أتابع إحدى مباريات الجريت وأستمتع بالإثارة التي تلفها. يشارك في اللعبة فرقتان.. يقف كل منهما على طرفي ساحة واسعة عرضها حوالي من 70 إلى 120 مترًا.. يقفون وجهًا لوجه.. ويصطفون على هيئة 6 أشخاص، يليهم 8، ثم 12 شخصًا.

مع إطلاق صافرة البداية، يمتطي كل لاعب جواده، حاملًا في يده آلة اللعب «رمحًا» أو عصًا. ويأخذون معهم عددًا كافيًا من هذه العصي. ينطلق اثنان من الفريقين المتقابلين، ويقتربان من بعضهما لمسافة 30 أو 40 مترًا تقريبًا، وينادي أحدهم الآخر باسمه ليدعوه إلى المبارزة.

بمجرد أن يطلق أحدهما العصا باتجاه الآخر ويعود، يتبع بعدها الفارس المدعو الفارس المنادي بسرعة، ويلقي بعصاه على الفارس الذي عاد هاربًا. في هذه المرة، يخرج لاعب آخر من الفريق الأول ليلحق بالفارس الذي يحاول أن يأخذ مكانه في الطرف الثاني ويرميه بالعصا. ويستمر الكر والفر على هذا المنوال، وإذا أصاب اللاعب

خصمـه يكسـب علامة لفريقـه، وإذا أصاب الحصـان يخسر علامة. وبعد فقده ثلاث علامات، يخرج اللاعب من المباراة.

أكد لي سـنان سـتشرش مدير اتحاد الرياضات التركية -والمسئول عـن 8 رياضـات تركيـة قديمـة- أن تركيـا لديهـا 70 فريقًـا يلعبون الجريـت إلَّا أن فريـق إرزروم يعـد من أشـهر وأمهر هـذه الفرق من حيث تحقيقه للمكسـب وحصد البطولات. عادة ما تنظم البطولات ومباريات هذه اللعبة في الصيف. أما في فصل الشتاء، ونظرًا للبرودة القارسة، فتكتفي الفرق بالتدريب.

كانت لعبة الجريت قد تم قبولها من طرف الأتراك العثمانيين كلعبة حربية في القرن السادس عشر. واعتبارًا من القرن التاسع عشر كانت اللعبـة تعـرض في قصور الدولـة العثمانية في كل أنحـاء تركيا؛ ونظرًا لأنها لعبة خطيرة، فقد منعها السـلطان محمود الثاني في عام 1826م، لكنهـا انتشرت مرة ثانيـة في تركيا كلعبة حربيـة ورياضية. ومازالت بعض الدول المجاورة لتركيا مثل: إيران، وأفغانسـتان، وتركمانستان تحتفظ بها وتمارسـها... ومنعًا لحوادث المـوت الناجمة عن هذه اللعبة العنيفـة، تم صنع العصي أو الرماح من أخشـاب نخيـل التمر بطول يتراوح بين 70 و100 سـم، وبقطر 3 سـم. بعد ذلك أصبح يستخدم في صناعتها شـجر الحـور، ويتم تدوير رءوسـها ونزع قشـورها لمنع خطر الإصابة بالموت.

وسط صيحات الجمهور المتعالية في المدرجات، وفي قلب هذا الجو

المليء بالإثارة والتشـويق.. يتناسـى الإنسان هموم الحياة ومشكلاتها. وسـواء كسـب فريقه أو خسر، فيكفي شرف المحاولة.. لا شـك أن اللعبة تعيد للذاكرة زمنًا قد ولًى وانقضى.. هو زمن الأبطال وشـهامة الفرسان.

إذا أردت أن تسـترجع هذا الزمن.. فتعال إلى إرزروم.. ركن من الدنيا وراء البعيد.

***

الباب العاشر
أنقرة.. بلد المحبوب

تسللت إليها أشدو بأنشودة البحث عن الأحباب.. أفتش على أرضها عن صديقتي ومهجة الفؤاد.. حبيبتي من تكون؟!.. القريبة إلى نفسي.. البعيدة بحكم جغرافية المكان والزمان.. تنتظر وصولي.. على يقين من قدومي إليها في يوم ما.

جمعتني الأقدار بالسيدة إسان أوزتورك في القاهرة.. وتوطدت بيننا علاقة إنسانية رائعة دامت لثلاث سنوات من خلال عملها كمستشار الثقافة التركية.. لكنه الفراق الذي لا مهرب منه.. هذه حكمة الحياة ولعبة القدر.. والعمر ما هو إلَّا غربة واغتراب.

كانت دائمًا كلمات الشاعرة غادة السمان لحبيبها حاضرة بالبال كلما تذكرت حبيبتي «إسان».. فأجدني أردد كلماتها، شوقًا وحزنًا وحنينًا.

كنت أفكر بعلاقة إنسانية حقيقية

نحياها معًا

في دهاليز أحزاننا وخيباتنا

ونواجه بها الموت والحزن والمجهول...

ونتبادل خلع الأقنعة والحب

في ليل المحطات الموحشة الماطرة

الملقبة بأيامنا...

بالفعل، كنَّا نخلع الأقنعة ونبوح لبعضنا بالأسرار، دون خوف من غدر أو توقع لخيانة.

ما بال هذا الزمن لا يجود بالأوفياء؟!.. وما أقسى غياب الأحباب!!

بعد فراق دام خمس سنوات، جاءت حبيبتي رامية إليَّ بطوق نجاة.. ما إن شاهدت ابتسامتها الرائعة وسمعت صوتها العذب وهي تقول لي: «هوش جلدنيز» -وهي تعني بالتركية «أهلًا وسهلًا»- حتى تلاشى تعب السفر.. ووجدت نفسي أرسو على مرفأ حب وسلام.. وقعت أسيرة لحب هذه المدينة.. بل إنني امتلكت كل مفاتيح العاصمة، وصرت فاتحًا جديدًا لها.

ربما سبقني إليها الحاثيون، والحيثيون، والفريجيون، والليديون، والأخمينيون الفرس.. كما حكمها المقدونيون والكلدانيون والرومان.. وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، ظلت تحت حكم البيزنطيين

حتى فتحها السلاجقة.. ثم سقطت في أيدي المغول، إلى أن سيطر عليها العثمانيون في القرن الرابع عشر. وأخيرًا، أعلنها مصطفى كمال أتاتورك في 1923م عاصمة بفضل موقعها الجغرافي المتميز وسط هضبة الأناضول وسط تركيا.

الإيقاع هنا سريع جدًّا مثل كل عواصم الدنيا.. ملامح الحياة العصرية تبتلع المشهد.. الرجال والنساء يرتدون ملابس أنيقة -رسمية في الغالب- وهو أمر متوقع في أرض تضم مقر الحكومة التركية، بوزاراتها وبرلمانها ومؤسساتها المختلفة.. بالإضافة إلى وجود جميع السفارات الأجنبية.. الكل يسرع الخطى ويسابق الزمن.

لا يقطع هذا الماراثون سوى الحدائق التي تمتد على مساحات شاسعة.. الشوارع نظيفة وواسعة.. المباني حديثة وألوانها زاهية.. النافورات تتفجر مياهها الزرقاء بلون السماء الصافية.. ويتجلى ضريح الزعيم أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة في أبهى صوره، ليعلن للعالم: «هنا أنقرة العاصمة.. ثاني أكبر مدينة تركية بعد إسطنبول».

ضريح أتاتورك

يبدو في الأفق وكأنه معبد مصري قديم، يلفه الغموض والأسرار.. يقودك لضريح أتاتورك «أنيتكبير» طريق تصطف على جانبيه تماثيل أسود رخامية، تذكرك بطريق الكباش في معبد الأقصر بمصر. الفارق الوحيد بين الاثنين أن الحدائق هنا تحيط بالتماثيل.. والأشجار تطل من كل جانب بارتفاعات مختلفة ومتناسقة.

عـبرت الممـر، فإذا بي أقف وسـط سـاحة واسـعة أمـام الضريح مباشرة..

مجموعات من الجنـود -في أبهى صورهم بالزي الأحمر- يقدمون العـروض الاسـتعراضية بمصاحبـة الموسـيقى العسـكرية.. الأداء منضبط جدًّا.. الحركات واحدة.. كل خطوة محسـوب حسـابها بدقة متناهيـة.. وهـي تعكـس بوضـوح تام مـدى رقـي التدريبـات التي يتلقونها.

من فرط إعجـاب الزائرين بهذه الاسـتعراضات، كانوا يتوقفون لمشـاهدتها لفـترات زمنيـة كبـيرة.. وكلـما توقفـت الموسـيقى، كانوا يصفقون لهم بحرارة ليطالبوهم بالاستمرار.

الفضـول كان يدفعنـي لفـك طلاسـم الضريح ونبـش صناديقه السريـة التـي دفنت مـع صاحبـه. حتـى لا يداهمني الوقـت، تركت العرض العسـكري وصعدت السلالم مسرعة كي ألحق بمشاهدة كل الزوايا والتفاصيل في الداخل.

على جانبي باب الدخول، اسـتوقفتني لوحتان جداريتان تحملان وصايا وتعاليم أتاتـورك، وفقرات من خطبه في البرلمان.. أكثر ما أثَّر في نفسي كانت تلك العبارات التي يوصي فيها الشباب بالحفاظ على مـا تركه لهم الأجداد من أمجـاد.. بل ويحثهم على بذل الغالي والنفيس من أجل حماية الوطن من أعدائه والارتقاء به.

إحقاقًا للحق، عمل الأتراك بالوصية..

الضريح غير تقليدي!! البساطة تطغى على المشهد رغم التفاصيل الكثيرة. هنا فقط يرقد جثمان الزعيم مصطفى كمال أتاتورك، واللقب يعني «أبو الأتراك». ألوان كثيرة من البشر من كل الجنسيات، تأتي خصيصًا لوضع الزهور على قبر الزعيم التركي.

صور عديدة لأتاتورك على الجدران: مع أسرته، وزملائه بالمدرسة العسكرية، وزعماء العالم.. بانوراما متكاملة للمعارك التي خاضها سواء في ميادين القتال أو تحت قبة البرلمان.. بهرتني أيضًا ملابس البيت والملابس الرسمية له، فجميعها يكشف عن أناقة هذا الرجل وذوقه الراقي الرفيع. في إحدى لوحات العرض الزجاجية، تشاهد علب الدخان، والسجائر، والغليون التي كان يستخدمها.. مجسمات أخرى تجسِّد بيته ومدرسته.

تفاجئني من بين المقتنيات بطاقته الشخصية الأولى، ببياناتها المكتوبة بالحروف العربية، قبل أن يقوم هو بتغيير الأبجدية العربية إلى اللاتينية.. وقد كتب فيها اسمه الحقيقي «مصطفى علي رضا»، من مواليد عام 1881م، ولد بمدينة سالونيك اليونانية التي كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية.

صورة أتاتورك إلى جوار الحروف العربية كانت مبعث دهشة عظيمة بالنسبة لي.. فالعلاقة بين الاثنين مثل المسافة بين السماء والأرض.. لم يخرجني من حالة الدهشة التي دامت لدقائق طويلة سوى تصاعد صوت أتاتورك ينطلق في فضاء قاعة العرض. طوال

رحلتك داخل هذا الصرح الأسطورة، تبهرك التكنولوجيا والتقنيات الحديثة المستخدمة فيه. موسيقى شعبية.. أغانٍ وطنية.. أجزاء من خطب أتاتورك بصوته.. تبث من خلال ميكروفونات وشاشات مثبَّتة في الطرقات والممرات.

وصلت إلى باب غرفة المكتب. ما إن تسللت إليها حتى وجدت أتاتورك أمامي يجلس على مكتبه الخشبي الضخم الأنيق، وتحت قدميه يتمدد كلبه الوفي.. كادت المجسمات من فرط إتقان صناعتها تدب فيها الحياة!! كانت نظراتهما موجهة لكل من يدخل من باب الغرفة.. وهو -ربما- ما دفع الزائرين للتحرك بحذر شديد خوفًا من أن يزعجوا أيًا من المجسمين أو يسببوا لهما ضيقًا.

فخامة الأثاث والديكورات تغلب على الحجرة.. أما مكتبته، فهي تعج بكتب ومعاجم ودوائر معرفية بلغات مختلفة.. بما يدل على إجادته التامة للغات، خاصة الفرنسية. أمَّا الغرف المطلة على الفناء الواسع، فتستمتع بمشاهدة القوارب والسيارات الفارهة التي كان يمتلكها.

الوقت يمضي بك سريعًا داخل هذا الضريح.. معها تكتشف الكثير من أسرار حياة هذا الزعيم.. وتعي قيمته عند الأتراك كرمز لنهضتهم وارتقائهم.

هنا يرقد جثمان مؤسس دولة تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك.. الرجل الذي اختلف حول آرائه وأفكاره الكثيرون.. لكن الجميع يتفق

على احترام الدور الذي لعبه في نهضة بلده وقدرته على خلق شخصية تركية جديدة تواكب العصر على أنقاض انهيار الدولة العثمانية.

***

تركض حرة كالريح.. تصهل كالعاصفة..

هنا العاصمة...

تخلو شوارعها من المارة في ساعات الصباح.. الكل يسعى وراء الرزق الحلال ويدير عجلة الإنتاج.. لكنها في الليل تتأهب للسهر.. تموج بالجماهير التي تتردد على السينمات والمسارح والملاهي الليلية.. بالكاد تجد مقعدًا خاليًا في المطاعم والمقاهي بميدان «كيزيلاي»، أهم وأكبر الميادين هنا لما يحوي من مراكز رئيسية للبنوك والشركات والمحلات التجارية متألقة.. ساهرة.. تبدو لي مصابيح الإضاءة -من نافذة حجرتي بالطابق العاشر من الفندق- وكأنها حبات لؤلؤ متناثرة على وجه المدينة.. في مشهد رائع لا يمَّحي من الذاكرة.

***

في صباح يوم جديد، تشق السيارة الطرق الممهدة كالحرير.. روح الغرب العصرية تسود على روح الشرق وتأملاته.. لولا انتشار بعض المساجد، والعمارة العثمانية التي تتجلى في بعض التفاصيل، لاعتقدت بأنني أجوب شوارع عاصمة أوروبية. لا شك أن الحياة في إسطنبول أكثر شرقية من هذه الأرض، وأقرب إلى النفس والروح. كم اشتقت لك يا إسطنبول!! لكن أنقرة تظلُ في عيني هي بلد المحبوب.

غـارق في القدم.. له إطلالة مجد وهيبة.. ها هو حصن أنقرة يبدو مـن بعيـد كأقـدم جزء مـن المدينة، تـم بناؤه مـا بين القرنين السـابع والتاسع الميلاديين.

في الطريـق، شـاهدت أيضًا البرلمـان وهو مبنى فخـم يتكون من طابقـين، ويشـبه إلى حد كبـير برلمانات أوروبـا.. غـير أن الزخارف السـلجوقية والعثمانيـة منحته خصائص العـمارة التركية. في أحاديث كثيرة مع صديقتي إسان، كانت دائمًا تؤكد لي أنه في بلد أتاتورك، تدين المرأة التركية بالكثير لهذا الزعيم.. فهن لم يناضلن من أجل حقوقهن، بل أعطيت لهن من قبله. لقد اكتسبت النساء حق التصويت والترشح للبرلمان عام 1934م أي قبل دولة مثل فرنسا بأحد عشر عامًا.

كم هن محظوظات نساء تركيا عن نساء العرب!!

مُتنـزَّه الذكريـــات

لم يكتف سـكان المحافظـة بالجمال الذي منحته لهـم الطبيعة.. بل راحـوا يلونون شرفات وأبـواب المنازل بأحواض الزهـور الرائعة.. كذلـك امتـدت الأصابع الفنيـة لتضفي جمـالًا أخاذًا أمـام واجهات المحلات والمتاجر من خلال الاهتمام بتنسـيق أصص الزهور بألوانها المتنوعـة: الأحمـر والأصفـر.. الأبيض والبرتقـالي.. والبنفسـجي.. ما أجمله من عالم ساحر!!.. أهيم في فضاء الألوان مثل بالون أفلتته يد طفلة في العيد، ولم يعد ثانية إلى الأرض.

في الأفـق، تبـزغ رءوس غابـات الصنوبـر والأرز من بـين كتل المباني

الخرسانية.. أما الحدائق، فتفترشها سجاجيد الزهور الزاهية الباهية.. وربما تشتهر أنقرة -عن باقي المحافظات التركية- بحدائقها الغنَّاء البديعة، فهي تضم «المتنزَّه النباتي» الذي تأسس في 1950م كجزء من جامعة أنقرة. ويضم فصائل مدهشة من الأشجار والنباتات، بجانب مزرعة من الأعشاب تحوي ما يفوق 10000 نوع من الأعشاب والنباتات الطبية.

هناك أيضًا «مُتنزَّه هينشليك»، الذي تأسس عام 1943م وظل لفترة طويلة المنتزه الوحيد والأقدم في أنقرة، وهو يشبه إلى حد كبير حديقة «الميريلاند» في القاهرة حيث يمتد على مساحة واسعة جدًّا، تبلغ 83 هكتارًا، ويضم متنزهًا ترفيهيًّا قديم الطراز.. وحدائق الشاي.. ومطاعم ومقاهي.. ومسرحًا مفتوحًا.. كذا، يتميز ببركته الكبيرة ومساحات خضراء شاسعة. وفيه يمكنك أن تستأجر قوارب التجديف أومراكب البدَّال.

كل ركن من جنبات هذا المتنزه ينشط لي الذاكرة.. ويستحضر تفاصيل عشتها في طفولتي.. عندما كنت أتردد مع أسرتي على الميريلاند لقضاء أحلى الأوقات والسهرات التي كان يحييها نجوم الفن الكبار.. تمامًا كما يفعل الأتراك مع أبنائهم، كان والدي يستأجر لنا قارب بدَّال في البحيرة الصغيرة التي كانت تبتلع -آنذاك- أجسامنا الصغيرة.. نجلس أنا وأختي ممسكتين بقوة في ذراعه.. وكلما تمايل بنا القارب، يمينًا ويسارًا، تعالت الصرخات الممزوجة بالضحكات.. بينما تتابعنا الوالدة على ضفاف البحيرة وتلتقط لنا الصور التذكارية.

أحدق إلى العائلات الجالسة تحت الشجر، فأتذكر أيام كنا نلعب على بساط الميريلاند الأخضر ونأخذ معنا كل وسائل التسلية من كرة، وحبل، وكوتشينة.. ولا ننسى الاحتياطي من السندويتشات والحلوى التي تعوض الطاقة المفقودة من اللعب والجري طوال النهار.

أتأمل هنا فرحة الأطفال وهم يمرحون ويلعبون.. أجد أبطال قصصي يهربون من كتبي إلى الواقع.. فأستعيد معهم صورة المسابقات والألعاب التي كنت أنا وشقيقتي نشارك بها الأطفال من عمرنا.. سواء كانوا من أبناء أقاربنا أو حتى من أبناء الجالسين في الطاولات المجاورة لطاولتنا.. لا يهم!! فبراءة الأطفال لا تفرض علينا القيود، وإنما تتركنا أحرارًا في التعامل مع الآخرين.. المهم أن نلهو ونلعب ونستمتع بأوقاتنا...

تلتهمني القصص.. أتلاشى في صور الماضي الجميل.. أتمزق شوقًا إلى عودة هذه الأيام، زمن البراءة والناس الطيبين.. أفتقد والدي وأحزن على رحيله، عسى أن يجمعنا الله معًا في يوم ما مع الشهداء والأبرار.

آه منك يا «هينشليك».. أنت لي متنزه الذكريات!! قلبي فيك يخفق بشدة بعد ركض لساعات طويلة في غابات الطفولة.. والزمن البعيد.

***

كنت على موعد مع «متنزه البجع» في اليوم الرابع من زيارتي للعاصمة.. كان اليوم مشرقًا والطقس معتدلًا.. بعيدًا عن صخب المدينة، ذهبت مع العزيزة إسان وأسرتها الصغيرة -زوجها وابنتها

«ناظ» - إلى «متنزه البجع» الذي سُمِّي كذلك بسبب أسراب البجع التي تسكنه، ويقاسمها العيش فيه البط والإوز.. يقع في منطقة خضراء وسط المحافظة ويضم بحيرة كبيرة.

حقًّا ما أروع المنظر!! ساعات قضيناها داخل لوحة فنية -أشبه بلوحات الفنان رينوار- في حضن الطبيعة التي تشيع السلام والاطمئنان في النفس. رحنا نلتقط الصور الفوتوغرافية لنخلد هذه اللحظات في ألبومات الصور.

خلال تناولنا وجبة الغذاء، كان الحديث كله عن مصر، وأحوالها بعد ثورة يناير 2011م وما ينتظره المصريون من نتائج لها. لم تخف صديقتي مخاوفها وقلقها على مستقبل المحروسة التي تعشقها هي وزوجها كثيرًا، والتي تربطها بأهلها ألفة كبيرة.. حتى ناظ الصغيرة، كانت تحكي لنا شوقها لمدرستها في القاهرة وافتقادها لأصحابها.. رصيد كبير من الحكايات ترويه ناظ لنا، وهي تلهو بإطعام مختلف الطيور المائية التي تسبح في البحيرة. كادت معظم الكائنات الحية في البحيرة تشاركنا الاستمتاع بالحديث.. في حب مصر.

الطقس حلو.. والصحبة أحلى مع فنجان القهوة التركي.. كنا نتزلج على جبل الذكريات.. ونسرق من الزمن ساعات الفرح قبل أن أشرع في أنشودة الرحيل.

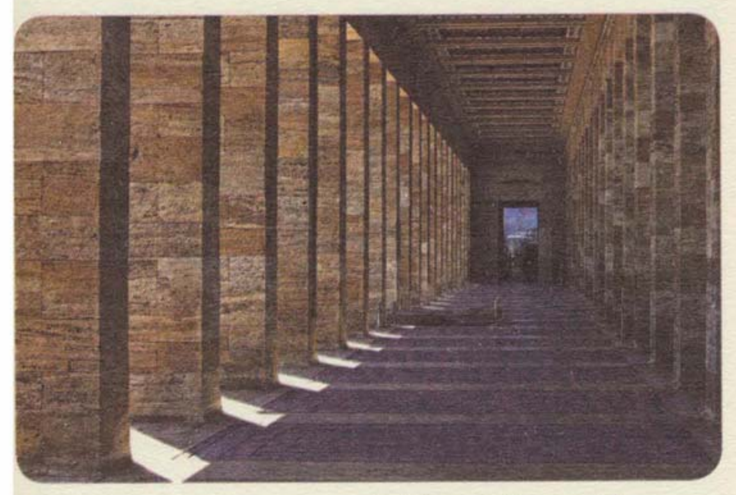
ضاع وجه حبيبتي ثانية بين زحام الوجوه وصالات المطار المليئة بألوان البشر.. وكأنه كان طيفًا مر بي في حلم جميل.. تلاشى!

لكنه باق في أنقرة بلد المحبوب...

ملحـــق الصـــور

تصوير/ السيد عبدالقادر

أنقــرة



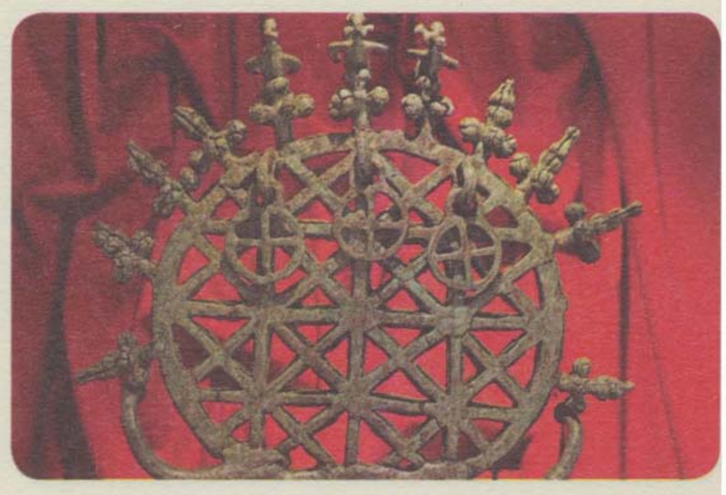
▲ أحد ممرات ضريح أتاتورك



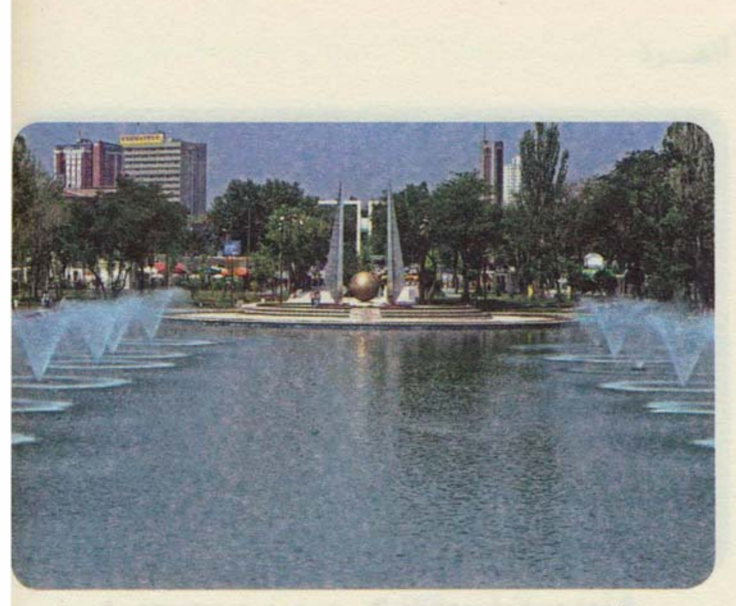
▲ عرض عسكري داخل الضريح



▲ مقتنيات المتحف الوطني



▲ مقتنيات المتحف الوطني

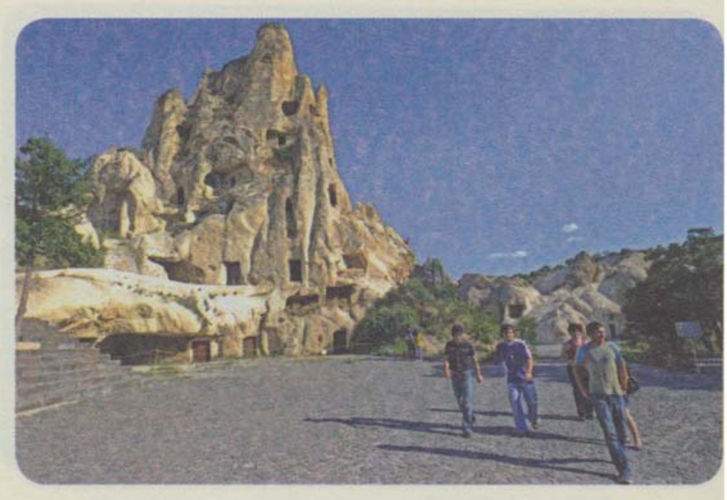


▲ متنــــزه «هيـنــشــلـيــك»

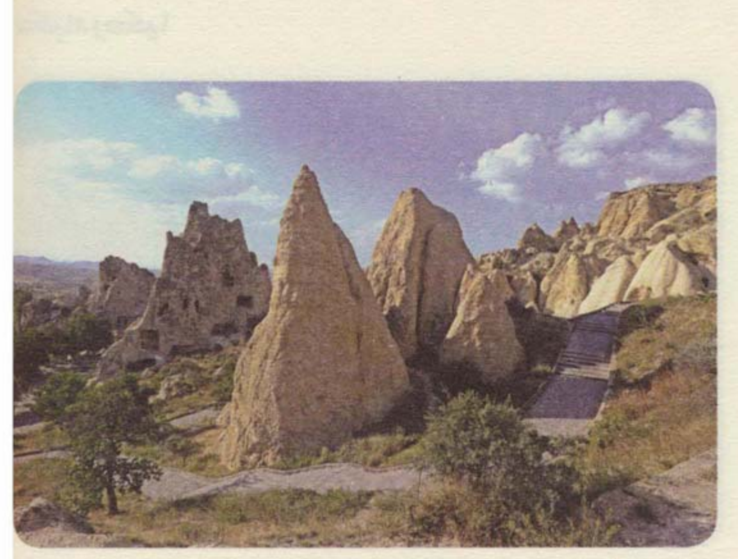
كبادوكيا



▲ منحوتات فخارية تحمل معالم كبادوكيا



▲ الكنيسة السوداء



▲ متحف جيرميه - المتحف المفتوح



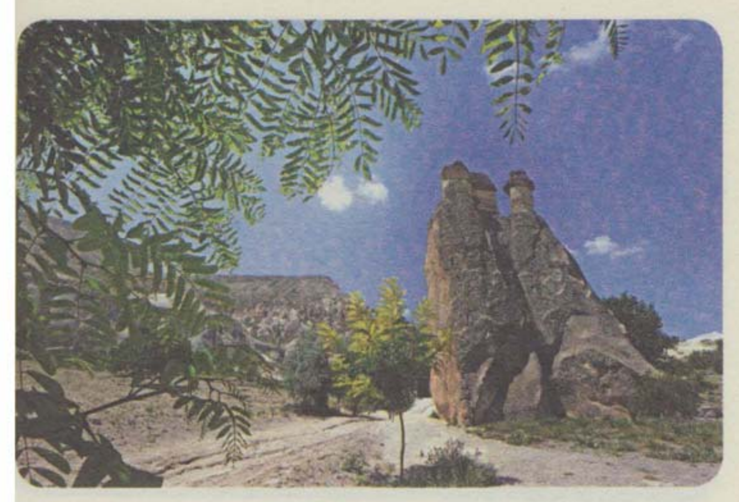
▲ متحف جيرميه



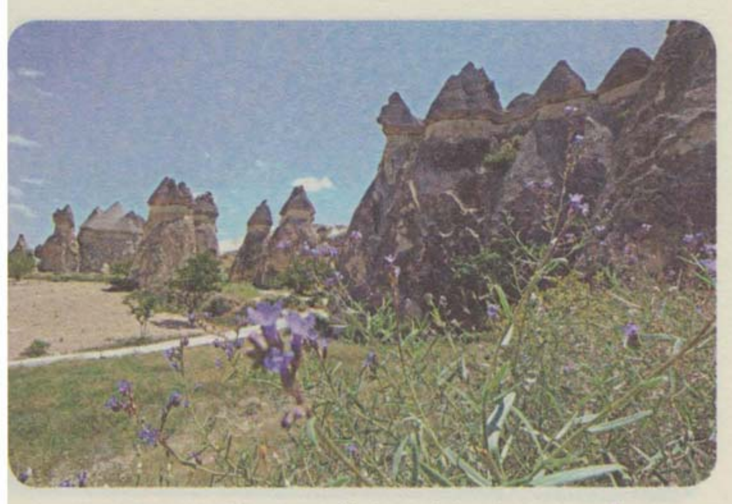
▲ داخل كنيسة التفاحة



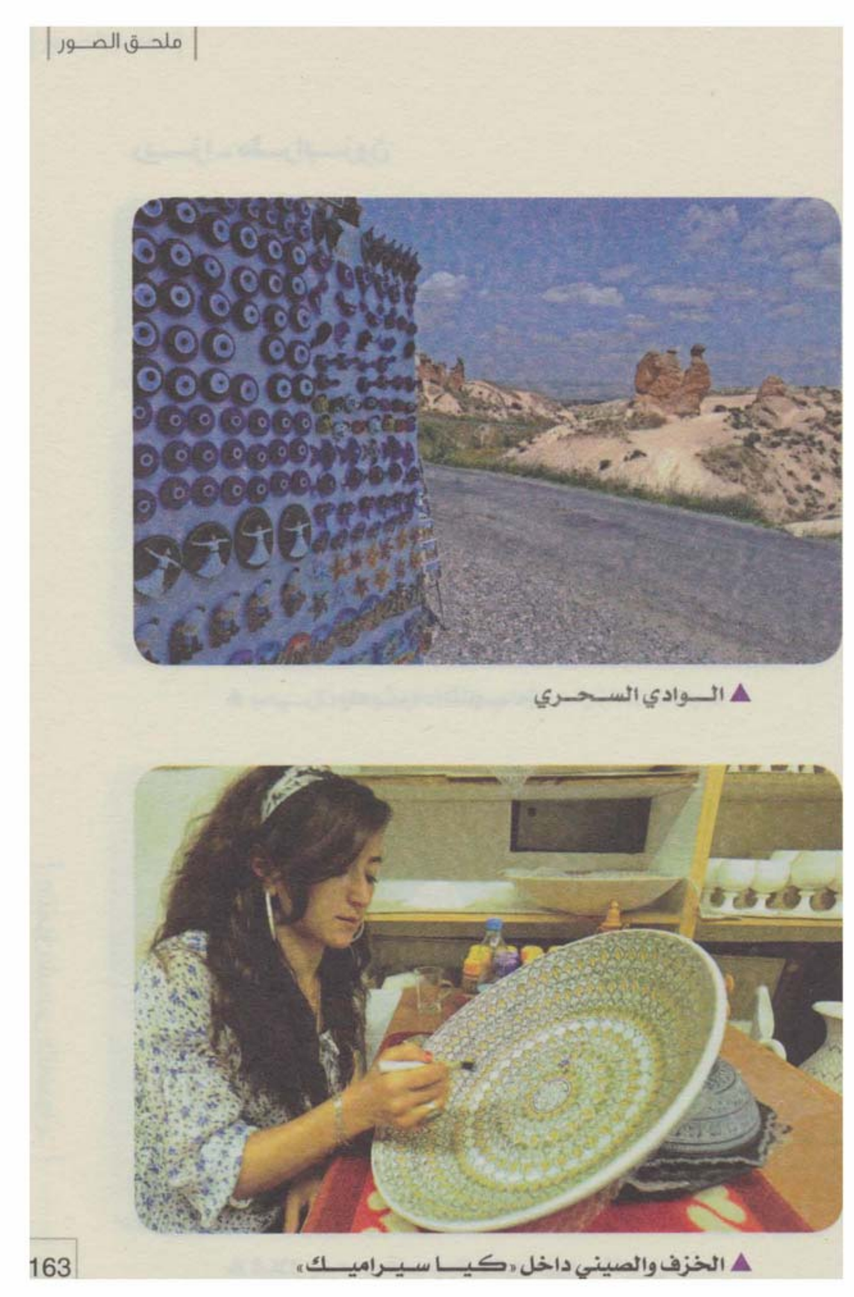
▲ كنيسة التفاحة



▲ مدفأة الحوريات



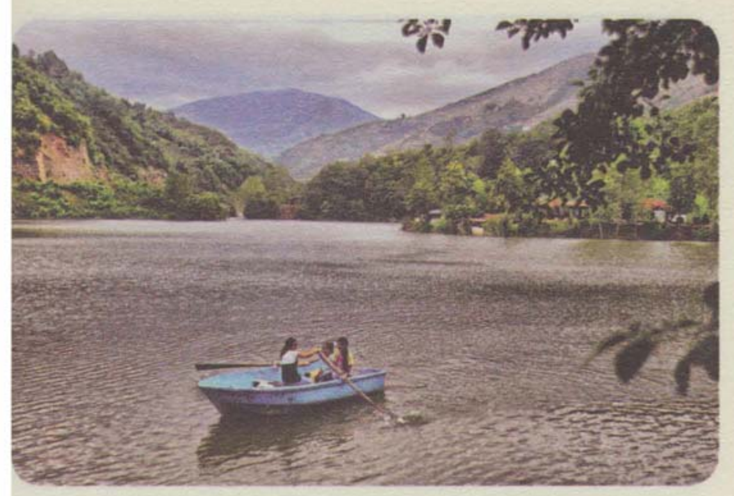
▲ منظر عام لمنطقة «مدفـــأة الحوريـــات»



▲ الوادي السحري

▲ الخزف والصيني داخل «كيا سيراميك»

ريـــزا - طـــرابـــزون



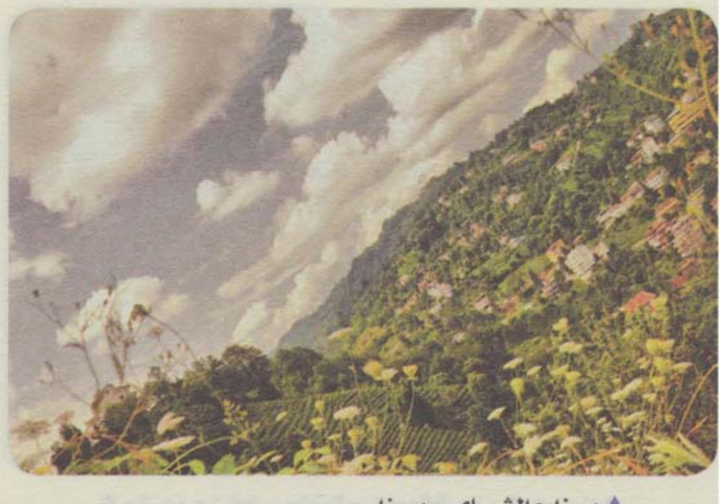
▲ بحيــرة «يلديــز» - النجــمــة



▲ شلال ينبع من قلب جبال طرابــزون



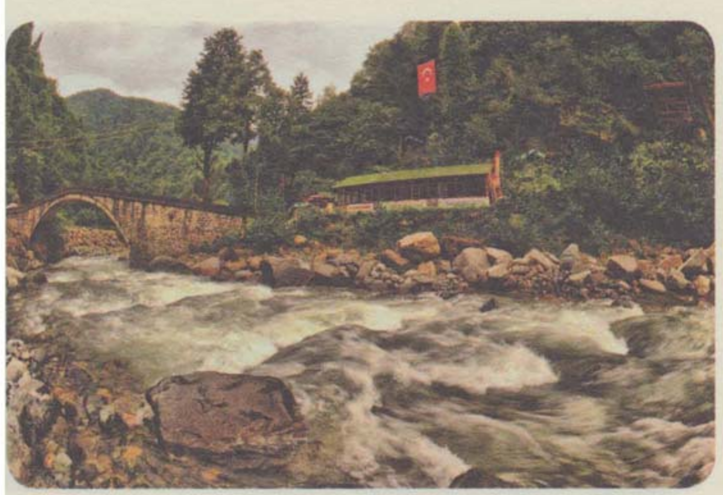
▲ بائعة «الذرة»... ويعني بالتركية «مصر»



▲ مزارع الشاي - ريزا



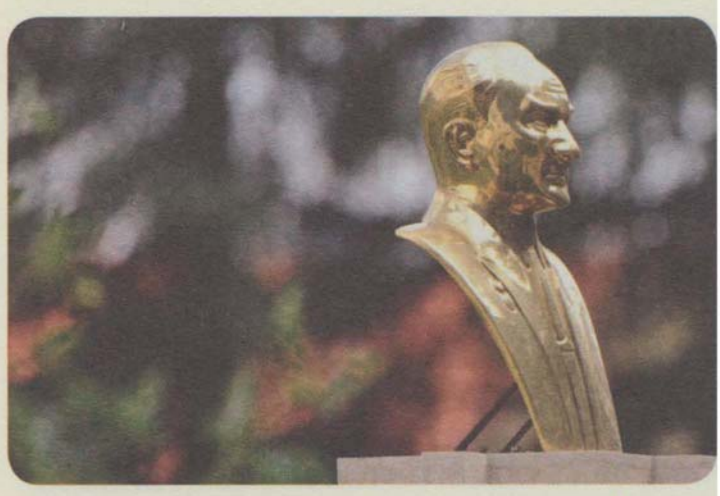
▲ إطلالة على مدينة ريزا من إحدى قلاعها القديمة



▲ مشهد من الطبيعة الساحرة في ريزا



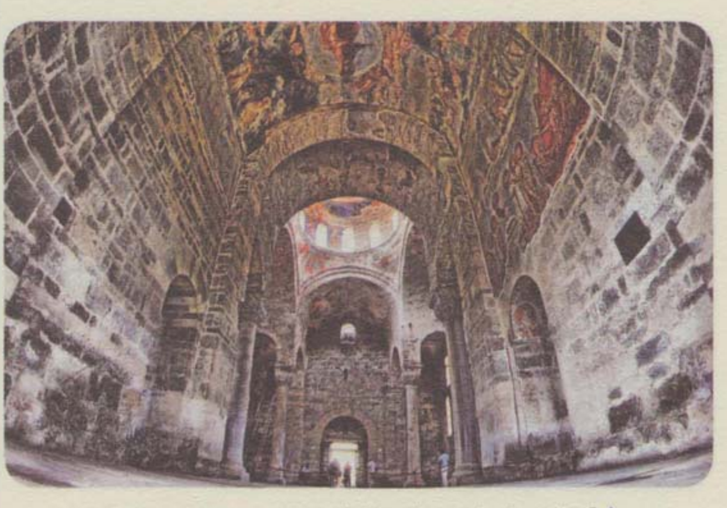
▲ بيت أتاتورك - طرابزون



▲ تمثال نصفي للزعيم أتاتورك



▲ آيـا صوفيـا ـ طرابــزون



▲ آيـا صوفيـا مـن الـداخـل



▲ داخل دير سوميلا



▲ دير سوميلا ـ طرابزون

حقـول البنـــدق فـي ريـــزا





▲ حقـول البنـدق فـي ريـزا

اسطنبـول - بـورصـة



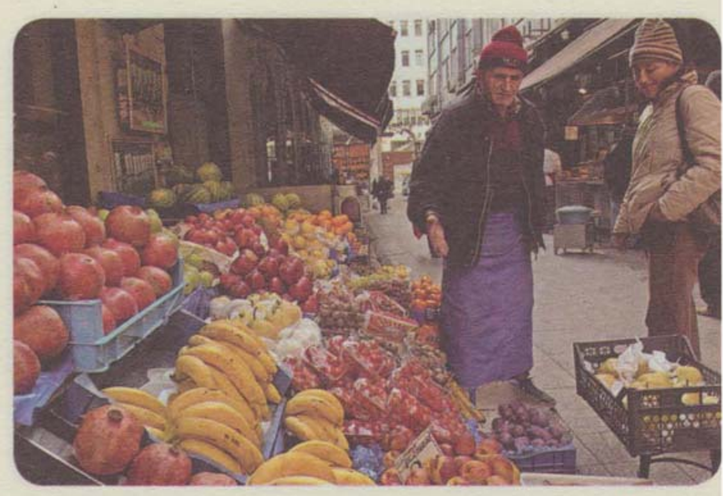
▲ منظر عـام لاسطنبـول



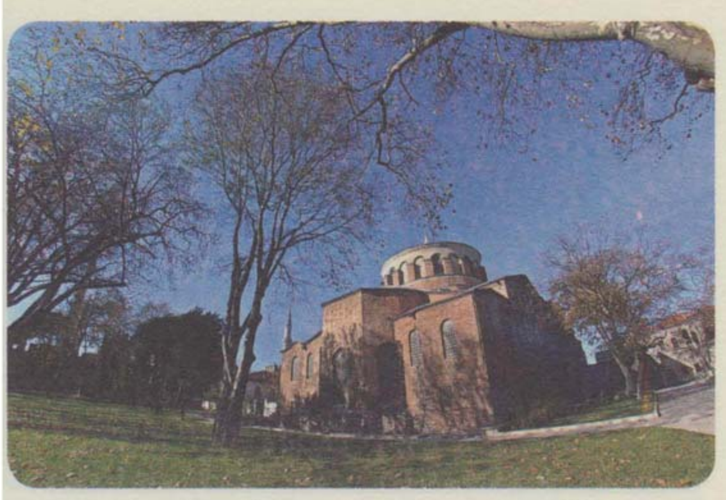
▲ أكبر ثريـة في قصـر «دولما باهتشـي»



▲ قصر «دولما باهتشي» ـ من بوابته المُطلة على البوسفور



▲ أسواق الخضار والفاكهة



▲ كنيسة «إيريني» داخل حديقة قصر «توب كابي»



▲ السوق المغطى «الجراند بزار»



▲ إحدى فسقيات حدائق قصر «دولما باهتشي»



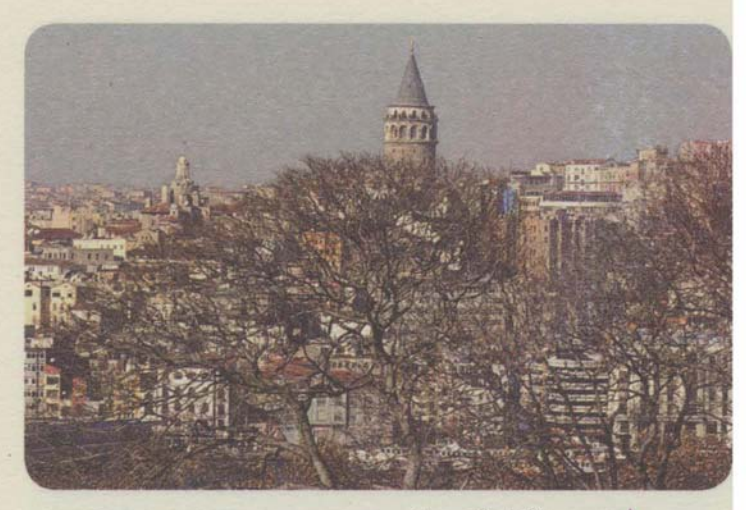
▲ مسجد السلطان أحمد



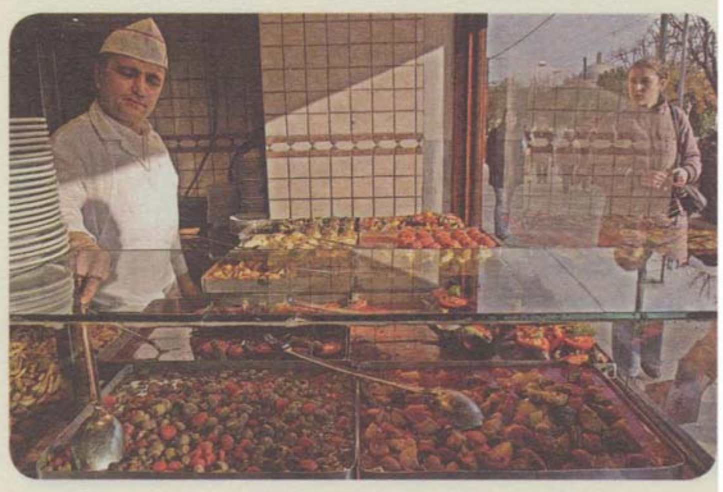
▲ بائع الأبو فرو «الكيستاني»



▲ أحد مساجد اسطنبول



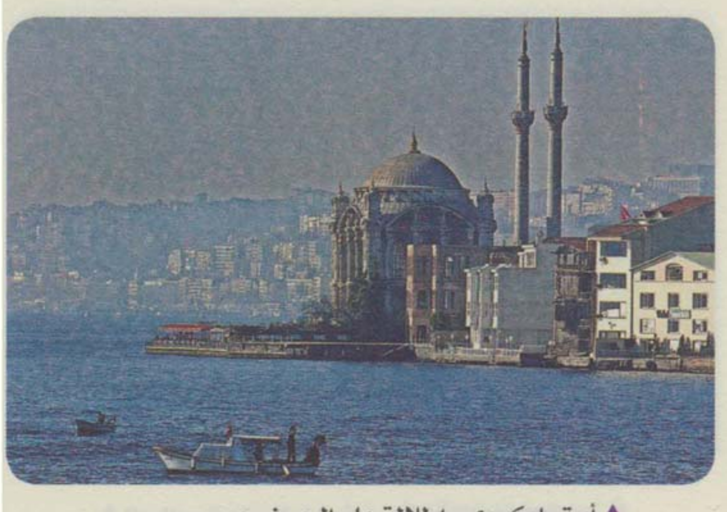
▲ بــرج جلاطــة ســراي



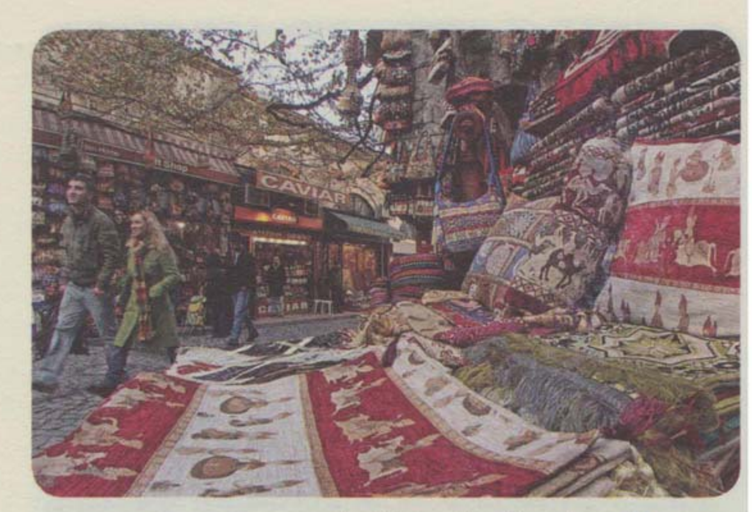
▲ المطاعم تجذب المارة بألوان الأطعمة المختلفة



▲ آيـا صـوفيـا ـ اسطنبول



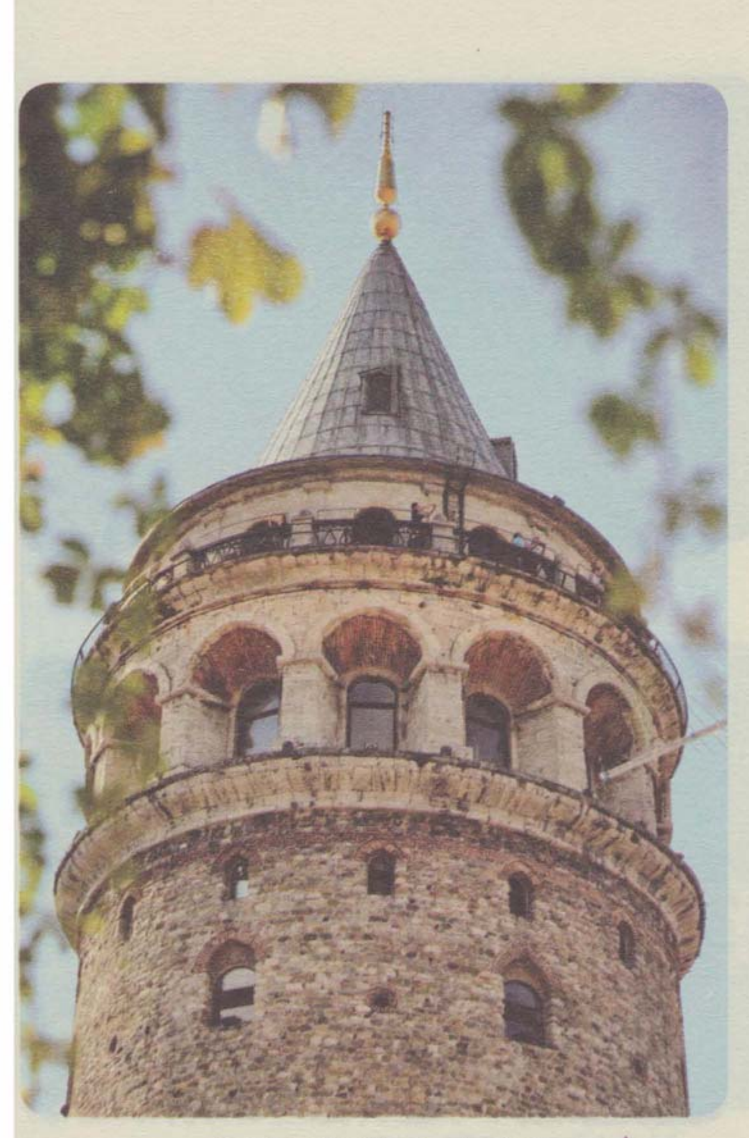
▲ أورتـاكـوي ـ إطلالة على البوسفـور



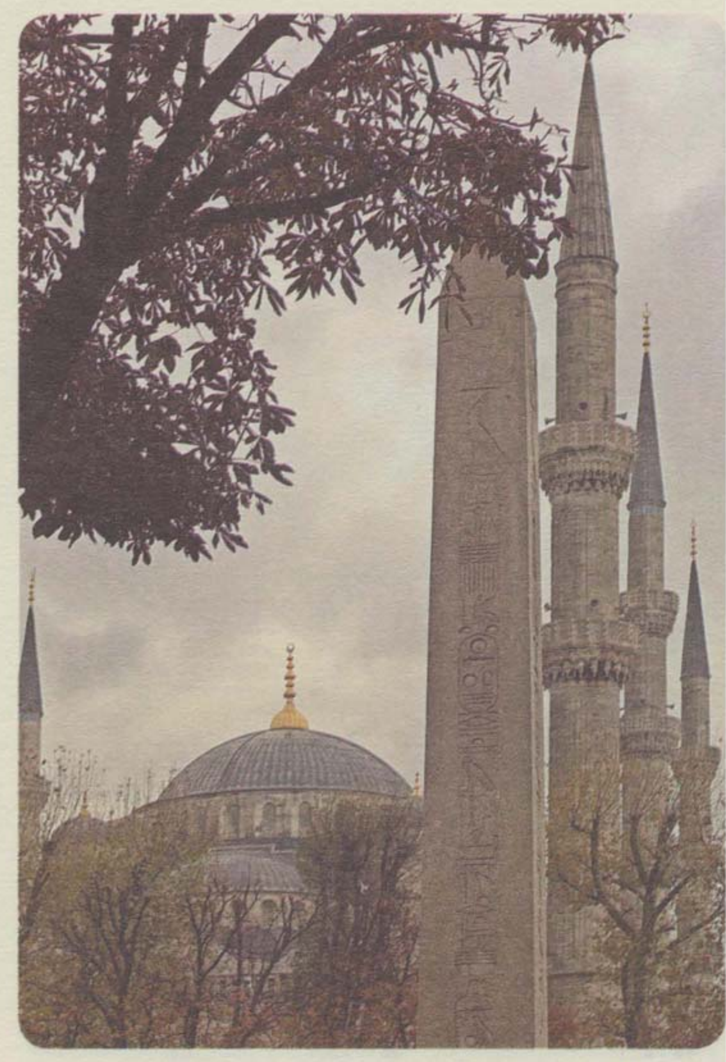
▲ سوق جراند بزار من الخارج



▲ عامل يرسم علم تركيا على حشائش الحديقة



▲ برج جلاطة سراي.. في ثوب الشموخ والبهاء



▲ المسلة المصرية إلى جوار مسجد السلطان أحمد

▲ بورصة في الشتاء ـ مرتفعات أولو داغ

نســــريــن مهـــــران

- كاتبة صحفية بجريدة الأهرام.
- لهـا كتابـات صحفية فـي جريـدة «الأهـرام إبدو» الناطقة بالفرنسية.
- والطبعة الدولية لجريدة الأهرام، ومجلة «السياسة الدولية»، وجريدة «الدستور».
- رئيـس تحريـر مجلـة «الجسـر العربـي التركي» - الصادرة بترخيص من المملكة المتحدة.
- عضو في نقابة الصحفيين.
- عضو في جمعية الجسر الثقافي العربي التركي.

من مدينة أسطنبول أكبر المدن التركية وأشهرها والتي لا تزال تحمل عبق ذكريات «القسطنطينية» بإطلالتها على مضيق البوسفور، إلى بورصة الخضراء هدية الله التي تحتضن «ضريح» أضرحة السلاطين العثمانيين الأوائل.

لأنقرة القابعة في قلب «أناضول» هضبة الأناضول بوسط تركيا تتباهى بتاريخ بعيد يُقدر بآلاف السنين. إلى مدينة ريزا النائمة على شريط ضيق من الأراضي المنبسطة بين الجبال والبحر مسقط رأس رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، إلى مدينة طرابزون ذات الغابات الكثيفة الممتدة على مدى البصر والشلالات المنهمرة في كل مكان مخلفة بحيرات متعددة الأحجام. تنتقل مع الكاتبة نسرين مهران بين سطور كتابها المنتمي لأدب الرحلات، مستشعرين متعة لا يحيط بها جمال المشاهد والصور فحسب، ولكن يغلفها رشاقة الكلمة و جمال الوصف، فلا تترك الكتاب إلا وقد أشرقت روحك بشمس الأناضول.

الناشر



www.nahdetmisr.com

